رواية

المعول وعش السنونو

د. جبير صالح القرغولي

المعول وعش السنونو

(رواية)

الكتاب: المعول وعش السنونو

المؤلف: الدكتــور جبــير صالــح القرغــولي

تصميم الغلاف والإخراج الفني: أمل عثمان

الطبعة الأولى: ٢٠١٣



سورية - دمشق

جوال ٠٩٣٢٤٧٢٠٩٦- ٠٩٣٢٠٠٢١٢٦-

هاتف: ٠١١٢٧٢٤٢٩٢

E-mail:ammarkordia@yahoo.com

المعول وعش السنونو

(رواية)

الدكتــور جبــير صالــح القرغــولي

لا تستعيري من مناديلي

أناشيد الوداد

أرجوكِ! لُفيّها ضماداً

حول جرحٍ في بلادي

محمود درويش

الإهـــداء

إلى أستاذَيَّ المرحومين الحبيبين

د. ناصر حلاوي

د. عبد الجبار المطلبي

وفاء البسطاء الحفاة، الذين لا
يملكون إلا إكمامَ القمصانِ مناديلَ،
يجففون بها الدموع.

جبـــير

قفـزتْ ذكــراه إلى خــاطري حــين رحــتُ أقــرأ قصــة (جَحْـدَر البَكريّ) وأخبار بطولته وبسالته في المعركة المشهورة (يوم تحْلاق اللمم)، قفزتْ ذكراه بصخبٍ وفوضوية، وهذا شأنه دائماً، فهو لا يعرف إلا الصخبَ والفوضويةَ، ولا يتعامل إلا بهما.

كلما خطرتْ ذكراه خلّفتْ على الوجه ابتسامة، وفي الوجدان حنيناً إلى ذلك العهد السعيد البعيد، وتلك المحلة الناعسة الحالمة، فردوسنا المفقود.

إنه (جَنْدَح)، هو ابن عائلة معروفة في المحلة، لها شأن وسمعة طيبة. جدّه لأمه هو الحاج خلف سليمان، صاحب مطحنة الحبوب الكبيرة الكائنة قرب جامع المحلة القديم.

توفي والده، وهو من أقارب الحاج خلف، تاركاً صبّيين وبنتاً، جندح أكبرهم، فعادتْ والدته (وهيبة) إلى بيت والدها، مصطحبة أبناءهـا الثلاثـة، فـدرجوا في بيـت العائلـة الكـبير، تحـت أنظـار جدهم، وأخوالهم..

حاتم وسلمان وفوزي، أما محمود الخال الأصغر فكان صبياً، لا يكبر (جندح) إلا بأعوام قليلة.

اسمه جلال فاضل عمران، واسم أخيه طلال واسم اخته نوال.

غلب عليه لقب (جندح) لحركته الدائبة الفوضوية الحادة، إذ لا يستقر في مكان واحد إلا وقتاً خاطفاً، وحين ينتقل إلى مكان

جديد يتخذ هيئة العصفور، وهو يحرك ذيله ورأسه وجناحيه كلاً في اتجاه.

أسمر، نحيل البنية، قوي العود، أشعث الشعر، حافٍ دائماً، لا تفارق (المصيادة) يده. تصدّر قائمة الصّبْية المشاغبين في الجانب الغربي من المحلة، وأسهم بفاعلية في التصدي والرد على مجاميع الصّبية المُتَحَدّين، المهاجمين أو المدافعين من أبناء الأطراف الأخرى.

أصيبت إحدى عينيه بعاهة مستديمة في أثناء إحدى فعالياته القتالية.

ساخر ومرح، له قدرة عجيبة على تحمّل التعنيف، ولا سيما تعنيف خاله حاتم، حادِ الطبع، مثلما له القدرة على الرد الفوري والانتقام.

كان حريصاً على مدّ جسور المودَّة من جديد، حين تتصدع العلاقة بالمحيطين به، من مختلف الأعمار، فلقد جعل جارتهم الحاجة حسيبة تشعر بتأنيب الضمير، لأنها أسرفتْ في تعنيفه عندما تشاجر مع حفيدها سمير وترك هالة زرقاء في وجهه، وذلك حين أخذ ينتظر عودتها من السوق يومياً، حاملةً (علاّكَتها) الثقيلة، فيسرع إليها ليحملها عنها ويوصلها إلى البيت، فرضيتْ عنه، ثم صارتْ من أكثر محبيه حماسة له، حين أخذ ينظف الساحة الواقعة أمام بيتها عند تنظيفه واجهة المطحنة، ولكنه ظل على موقفه من سمير، مستعداً لرسم هالة زرقاء أو هالات على وجهه، إذا فكر في القيام بأي عمل عدواني ضده.

كذلك أدام المودة مع الحاج خضير الجيلاوي حين تعرضت

لانهيار خطير، عندما كسر المصباح (أبو الستين) الذي وضعه الحاج خضير فوق باب داره، وعدّه مظهراً ونمطاً من أنماط الحديث عن نعمة الله.

استشاط الحاج غضباً، وأرغى وأزبد، وتهدّد وتوعد، ولكنه ندم حين اعتذر الحاج خلف نيابة عن حفيده، ثم رفض عرضه باستبدال مصباح جديد بالمصباح المكسور.

وتعبيراً عن خلوّ قلبه من أية ضغينة زار الحاج خلف، وجلس معه أمام العلوة، بصحبة عدد من الأصدقاء منهم والدي. ولقد دهش الحاضرون حين رأوا (جندح) ينوء تحت سلّم خشبي، ثم يسنده الى باب دار الحاج خضير، ويخرج من جيب دشداشته مصباحاً جديداً، ويحاول استبداله بالمصباح المكسور. ولما لم ينجح نادى خاله محمود ليساعده.

قال الحاج خضير بعتب:

ما هذا يا أبا حاتم؟! ماذا قلنا؟

- والله لم أطلبْ منه هذا! ولكنها (طلعة) حلوة!

حرص جندح على القيام بكل ما يدخل السرور على قلب جده. كان يغسل سيارته (الدوج ٥٦) دائماً، ثم يغسل الشارع، ويشمل ساحة الحاجة حسيبة بنصيب من العناية. وطلب من خاله فوزي تعليمه كيفية إعداد (النارجيلة)، وصار يتولى إعدادها لجده يومياً. ولم يتوانَ يوماً عن تلميع حذاء جده.

وخصّ خاله سلمان بحصة ثابتة وجيدة من صيده اليومي. كان صياداً ماهراً، يصطاد يومياً كثيراً من العصافير و(الفخاتي

والطويرنيات). وحين بدأ سلمان - وبدأنا معه - المشاركة في جلسات الأنس، شكّلت (الفخاتي) التي يقوم جندح باصطيادها وشوائها صنف (المزة) الألذ على مائدة السهرة.

علاقاته رائعة بالمحيطين به جميعاً، إلا خاله (حاتم)، الذي ظل مداوماً على مقته إياه، مثلما ظل هو غير متحمس لمد جسور المودة معه.

جمعتني بخاله سلمان صداقة نقية ومودة خالصة، لأنه دمث، ليّن الجانب، نقي السريرة، مرح ونديم فريد المثال. لم نكن نفترق. مجموعة من الشباب جمعتهم (الجيرة) والدراسة والآمال الغضة برباط مقدس. افترقنا أول مرة حين سافر في بعثة دراسية إلى يوغسلافيا، للتخصص في ميكانيك الطائرات.

دوّي خبر قبوله في البعثة، وأسهب والده في الحديث عن التقدم العلمي في (يوغسلافاكيا) التي سيدرس فيها أبنه.

وفي جلسات السمر، حين يستذكر سلمان أيام دراسته المهنية، كان يسمى يوغسلافيا كما أسماها أبوه (يوغسلافاكيا).

التأم شملنا بعد عودته إلى العراق، ثم افترقنا ثانية، حين انتقلتُ للسكن بعيداً عن محلتنا. أخبرني المرحوم علي (الكَهوچي)، صديقنا الأثير أن سلمان خلف يسأل عني، ويرغب في الاتصال بي، فاتصلت به، والتقينا في مقهى علي.

ليس غريباً بكاء المرهفين عند الوداع، ولكنّ بكاءهم عند اللقاء أمر يلفت النظر. بكى سلمان وهو يعانقني، فاختنقتُ وتعذّر عليّ أن ألومه. كان أوفر حظاً مني، فأزاحتْ دموعُه همومَه عن

صـدره، وتواصـل عجـزي عـن لومــه. وحـين رأيـت المرحـوم علــي الكَهوچي يمسح دموعه، وهـو واقـف قـرب (الوجـاغ) بــ (الـوزرة) الحمراء لم يعد لتستّري على رغبتي في البكاء من داع.

أيُعْقَلُ أنّ في قلوبنا جميعاً هذا القَدْر من بذور الحنين والشجن؟

اقـترح علـيّ أحـد الأصـدقاء، مـن جيرانـي في منطقـة سـكناي الجديـدة يومــاً أن نتنــاول الفطـور في مطعـم (عُنْجُـر) في (محلـة الفضل)، التي ترعرع فيها.

جلسنا بعد تناول الفطور في أحد المقاهي. يقع المقهى في زقاق ضيق، محاطاً بالمحالّ الصغيرة... ثلاثة (جنابز) ـ باعة طيور ـ ومحل مواد غذائية ومحل تصليح أدوات كهربائيـة منزليـة و(طرشـجي). أصحاب المحال مشغُولون بتنظيف الزقاق ورشّه بالماء.

مرّت متسولة اسمها (مجّودة)، فـراح الجميـع يـداعبها ويتغـزل بها، وهي ترد عليهم بلسان سليط ومداعبات مماثلة.

أنساني ذلك الزقاق وأجواؤه المنعشة مـرارة الحيـاة الـتي نعـاني منها. وحين عدت إلى البيت أحسست كأني مسافر عائد من سفر بعيد.

حقاً إن أوقاتاً نمضيها في مثل تلك الأجواء هي سفر خارج حدود الزمان والمكان.

* * *

سـألني سلمان، وهو يشعل سيجارة ويحتسـي الشاي عن أحوالي، وعن أهلي والأصدقاء.

سألني عن صباح الكواز وعدنان ياسين وعادل لازم وغازي شيحان، وأخذ بالبكاء ثانية حين علم بوفاة المرحوم علي ابن الحاج حسون البقال.

- أحقاً مات أبو العلا؟ ليرحمه الله! ما هي أخبار أخويه محمد وجعفر؟

- جعفر يملك مطعماً في المنطقة الصناعية، ومحمد يدير مقهى صغيراً في (الإسكان).

- هل تلتقيهما؟

- أزور جعفراً حين أمرّ بالمنطقة الصناعية، ولكني لا أنقطع عن زيارة محمد. إنه أكثر إخوته شبهاً بالحاج حسون رحمه الله! حين يتحدث أرى صورة أبيه، شكله.. عباراته، طريقة حديثه، هواياته.

ظل في إيران أسيراً تسع سنين، ثم عاد وقد فقد أصبعين من يده اليسرى، وكافح في حياته ونجح. إنه طيب ومستقيم، وإن أكثر شيء أثّر بي استمراره على ما اعتاده أبوه رحمه الله!

- كيف؟

- راح يذبح في العاشر من محرم في كل عام (ذبيحة)، ويطبخ (القيمة)، مثلما كان أبوه يفعل. وهو يربي الطيور أيضاً، ولديه في المقهى (برج) صغير.

- كان أبو العلا يهوى تربية الطيور أيضاً. رحمه الله! ما كان أطيبه! كان يسمي نعيمة الدلاّلة (أمي الصغيرة)، ويضحك

حين يردّ عليه صباح الكواز بقوله: (إنها ضرة أمهاتنا جميعاً).

- لقد تفادت حقدهن بلباقتها وطيبتها.

- طاردها أبي كثيراً.

- ومَـنْ لم يطاردهـا؟ حَفِيَـتْ أقـدام أبـي وزمرتـه، وهـم يطاردونها، ولكنهم جميعاً كانوا بين عابث وهازل. الوحيد الذي أحبها بصدقٍ هو الحاج حسون رحمه الله!

- أذكـر حادثـة طريفـة بطلاهـا أبـوك وأبـي، حـدثت بعـد أن أُجريَتْ عملية استئصال الزائدة الدودية لنعيمة.

- الزائدة الدودية أو اللوزتين؟

- الزائدة الدودية.. أنا متأكد من ذلك. كنت قريباً من أبي في تلك الأثناء، وقد اطلعت على كثير من تفاصيل ما حدث.

... اشتكت نعيمة مـن ألم في الجانـب الأيمـن مـن بطنهـا، ولم تستطع مواصلة العمل، فجمعتْ حاجياتها وعادت إلى البيت.

مَرّ الحاج صالح ورفيقاه ابراهيم الكواز وعطـا الله مرهـون، مروا راغبين في إلقاء تحية الصباح عليها، فلم يجدوها، وعلموا بحالتها، فقرروا زيارتها في البيت والاطمئنان عليها.

تقع دارها قرب دار الحاج خلف المجاورة للمطحنة. رآهم الحاج خلف وهم يطرقون الباب، فاتجه نحوهم فوراً متسائلاً:

ها! خير؟

- أم نجاة مريضة، فأحببنا أن نطمئن عليها.

فتحت ابنتها نجاة الباب، فتصدر الحاج خلف المجموعة قائلاً:

أحببنا أن نطمئن على الوالدة. سلامتها!

- تفضلوا عمو!

كانت نعيمة ممددة على فراش في غرفة المعيشة، والشحوب بادٍ على وجهها، وإلى جوارها والدتها.

- سلامتك أم نجاة.. ألف سلامة!

- اللّه يثلّمكم (يسلّمكم)!

جلسوا واجمين. أربعة أسود مفترسة تحيط بظبية جريح. الأم العجوز والابنة الشابة أخّرَتا توقيت الهجوم. سألها إبراهيم الكواز: بماذا تحسين؟

- أحثّ (أحسّ) كأن ثكاكين (سكاكين) تمزق خاصرتي اليمنى.

قدحَتْ بارقة أمل في إزاحة إحدى العقبتين.

قال إبراهيم الكواز موجهاً كلامه إلى أم نعيمة:

حاجة فضيلة! أعدّي لها إناءً من (الورد الماوي) فوراً.. إنه مفيد جداً لمثل هذه الحالات!

تركت المرأة (المهفّة) التي كانت في يدها، وتوجهت إلى المطبخ، لإعداد (الورد الماوي).

وسرعان ما زالت العقبة الأخرى، حين طلبت نعيمة من ابنتها إعداد الشاي للضيوف.

أشرقت وجوه الأسود الأربعة، وتهللت أساريرهم. تحلّقوا حولها، جلس إبراهيم الكواز وعطا اللّه مرهون بجوارها على الأرض،

وأمسك كلٌّ منهما إحدى يديها ، وراحا يدلكانهما بحنان. وجلس الحاج صالح والحاج خلف على الأريكة قرب رأسها. التقط الحاج صالح (المهفة)، وراح يحركها لينعش نعيمة بنسماتها.

بالرغم من آلامها ، ابتسمت وسألتهم:

كيف أنتم؟

- نفديك بأرواحنا!
- إثم (اسم) الله عليكم!

والحاج صالح يواصل تحريك (المهفة) أمام وجه نعيمة ، وينهال بها من حين لآخر على رأسي صديقيه حين يتماديان في التدليك.

قال لها إبراهيم الكواز:

قرأتُ على واجهة ستوديو للتصوير هذه العبارة:

(الحياة فقاعة فصوّرها قبل أن تنفجر). أبعد الله عنك أي سوء وأطال عمرك! إن هذه الوعكة درس يجب أن تستفيدي منه. إلام الانتظار؟

أجابت مبتسمة ، وهي تغالب الألم:

ثأفكر (سأفكر) في الأمر.

وحين غادروا ، سار الحاج خلف بصحبة أصدقائه وأوصلهم إلى نهاية الشارع، ليطمئن إلى أنهم لن يعودوا إلى بيت نعيمة. لقد علّمته التجارب ألاّ يطمئن إلى سَكِينتهم الوديعة.

بعد أقل من ساعة دخلت نجاة دار الحاج خلف وهي تبكي ، لأن أمها بدأت تعاني آلاماً مبرحة.

اصَطحب الحاج خلف ابنه سلمان وابنته أم جلال ، ونقلوا نعيمة

الى المستشفى، تصحبهم ابنتها نجاة.

شخَّص الأطباء حالتها بأنها التهاب الزائدة الدودية، فأجريت لها عملية جراحية لاستئصالها.

دخلت نعيمة المستشفى وغادرته بسرعة، فلم يُتَحْ لعدد من أصدقائها زيارتها. وكان الحاج صالح أوفر حظاً من صديقيه، إذ اصطحبه الحاج خلف حين عاد بنعيمة إلى بيتها، عندما غادرت المستشفى.

كانا جالسين في المطحنة، يحتسيان الشاي، حين دخل ابراهيم الكواز وعطا الله مرهون، الذي بادرهما بالقول غاضباً:

أنتم خونة ولا تستحون! لماذا لم تأخذونا معكم (لأداء الواجب)؟

قال الحاج خلف بلا مبالاة:

السيارة لا تتسع، نحن أربعة، فأين ستجلس هي، والطبيب أوصى بأن ترتاح في جلستها؟

قال إبراهيم الكواز:

كنا سنستقل سيارة تاكسي، أو نجلس في (جنطة) سيارتك، المهم أن نؤدي الواجب.

ثم التفت إلى الحاج صالح قائلاً:

وأنت يا مجرم! تخوننا مثل هذه الخيانة الشنيعة، وتدّعي أنك مثال للوفاء!

فقام الحاج صالح واحتضنه مواسياً معتذراً، وهو يقول:

والله العظيم، أبلغتها تحياتكما، وقبّلتها نيابة عنكما!

* * *

قلت:

لقد تصدع حلف الفرسان الثلاثة، ويبدو أنه قام تحالف جديد بين أبيك وأبي.

- نعم.. ظهر تحالف جديد! ثم تعرض لصدع لا يستهان به، أعقبه قيام مصالح مشتركة ووئام تام.

- ما هذا؟ هل أعاد التأريخ نفسه، فتجددت أحلاف أوربا قبل الحرب العالمية الثانية؟

- لم يخلُ أبي من أنانية وحب استئثار، في عصر ذلك اليوم أرسل (جندح)، وأوصاه بشراء مواد مطهرة وقطن.

* * *

رافق جندح جدّه إلى بيت نعيمة، حاملاً الأدوية وكيسين فيهما فاكهة.

دخل الحاج صالح المطحنة مساءً، حاملاً كيساً فيه فاكهة وكيساً صغيراً آخر، ودخل بعده مباشرة إبراهيم الكواز وعطا الله مرهون وأبو فرج، وكان الفتور جلياً بينهم وبين الحاج صالح، الذي أخذ يتحاشى النظر إليهم.

سأله الحاج خلف بلا اهتمامٍ عما يحتويه الكيس الصغير، فأجابه بصوت خفيض، حرص على ألاّ يسمعه الغرماء، وهو يشير بعينه إلى بيت نعيمة:

أدوية ومطهرات.

- اطمئن! لقد أجريتُ اللازم، والجرح نظيف والحمد لله!

أجفل الحاج صالح، ونهض مسرعاً، وهو يحتضن الكيسين.

ضحك الغرماء، وقال عطا الله مرهون:

من حفر بئراً لأخيه وقع فيه. اللهم لا شماتة!

وانفرط عقد الجماعة. ابتعد الحاج صالح عن صاحبيه، وابتعد الطرفان عن الحاج خلف.

أحسّ الحاج صالح أنه أسرف في التهاون بنفسه، واندفع وراء متعة الحديث مع نعيمة والقرب منها اندفاعاً، جاء على حساب هيبته، فانكمش آسفاً نادماً، وانسحب من الساحة، فلَمْ يَعُدْ يُشاهَدُ في المحلة. صار يغادرها ليزجي أوقاته بعيداً. وافتقده رواد المقهى الكبير. وأدرك صديقاه حجم الفراغ الذي خلّفه غيابه، والذي راحا يدوران في متاهاته، فأحسّا بالندم.

وكان الحاج خلف أوفر حظاً، لأن انشغاله بأعمال المطحنة صرف عنه ذلك الهم.

وبدا السوق في غياب الفرسان حقلاً، تتخلله الرياح بلا مرح، وتتمايل سنابله دامعة العيون، يبكيها شوقها إلى المطر.

إن زرقة السماء مهددة بالشحوب إذا امتنعت الصقور عن التحليق في أرجائها.

كابر الحاج خلف، وحاول الانصراف كلياً إلى أعماله وإرغام نفسه على عدم الاكتراث بغيابهم، ولكنه لم يستطع مواصلة المكابرة، فأزاح عن صدره الهمَّ، واعترف بأنه يعاني من المرارة التي خلّفها غياب أصدقائه.

هناك أصدقاء آخرون كثر، وجيران طيبون، والمطحنة بعد أوقات العمل تكاد تكون مقهى، يجتمع فيها رجال من مشارب مختلفة - وتلمّ بها في أثناء العمل أحياناً نسوة تحت غطاء المصالح، يخففن عناء الحياة - زواره أكفاء، جديرون بالاحترام، مثل السيد نجيب الشاوي، الوجيه البارز، والسيد أبي حافظ، إمام الصلاة في الحسينية

الكبيرة، والشيخ عبد الله الكردي إمام الجامع وغيرهم. ومنهم أبو عودة سيد المحلة المهيب، وخليل قنديل، الذي يُعَدّ الحديث معه مكسباً ومتعة رائعَة، على الرغم من فارق العمر بينهما.

حتى أبو فرج، الحاج رشيد الجمالي لم يستطع سد الفراغ الذي خلفوه. أبو فرج وأحاديثه الشيّقة المليئة بالمبالغات والخيال المنفلت، الذي لا يقف عند حدود.

شيخ يبلغ السبعين من العمر، ضئيل البنية، يلفّ (الجراوية) ويدخن (النارجيلة).

يبدو من خلال أحاديثه وكأنه أسهم في تدوين تأريخ بغداد، لم يمر ببغداد حدث خطير ومهم إلا وكان شاهداً عليه، أو مدعواً إليه، من تعيين الولاة العثمانيين مروراً بتنصيب الملك فيصل الأول إلى افتتاح الجسور والمستشفيات.

شقاوات بغداد الكبار.. كل شقاواتها عنده فريقان: خصوم وحلفاء. له في كل محلة من محلات بغداد ذكريات، تسير باتجاهين: معارك دامية وعلاقات عاطفية مدوّية. لم يبق باشا من

الباشوات الأتراك، أو رئيس وزراء في العهد الملكي إلا (وبسطه أبو فرج وغططه بالشريعة [نهر دجلة])، ثم صار صديقاً له. بلغ عدد عشيقاته اليهوديات - قبل نزوح اليهود من العراق - سبعين عشيقة، له من كل واحدة منهن ثلاثة أو أربعة من الأبناء، يحملون أسماء يهودية.

قال ابنه فرج في أثناء حرب ١٩٦٧:

لا أدري كم من (إخواني اليهود) قُتِلُوا في هذه الحرب!

ذوات الشأن والصيت من بائعات الهوى في (محلة الذهب) و(الميدان) كلهن، مثل (رجينا سلّو) و(مريم الكردية) و(حسنة ملص) احتمين به أو وقعن في غرامه.

مغنيات العراق الشهيرات، مثل منيرة الهَوَزْوَزْ وصديقة المُلاّية ووحيدة خليل وزهور حسين ولميعة توفيق صديقاته. وما تزال الباقيات على قيد الحياة منهن يتصلن به.

لاحظ يوماً أن رواد مقهى الحاج إبراهيم يتابعون باهتمام مغنية شابة. كانت المطربة المصرية (شريفة فاضل) تغني أغنيتها الشهيرة (فلاّح كان فايت بيغني من جنب السور). سأل عنها، فقيل له: إنها شريفة فاضل، فقال:

(المضروبة! كُبْرَتْ وصارتْ مَرَهْ!)

سأله الحضور مبتسمين:

هل تعرفها يا أبا فرج؟

- إنها بنت فاضل (أبو الهريسة)، كانت وهي صغيرة تقدم لي

ماعون الهريسة صباحاً بنفسها.

حتى أبو فرج بأحاديثه الشيّقة لم يفلح في انتشال الحاج خلف من إحساسه بالوحدة، وهو بعيد عن أصدقائه الغائبين. معهم يشعر بالأمان والانطلاق، فلا قيود ولا تحفّظ ولا مجاملات. يقول ما يشاء ويضحك كيف يشاء، ولا يفكر بطريقة الجلوس والحديث، فقد يتمدّد على التخت، أو يفترش الأرض على بساط...

هل يستحق ما حدث هذا القدر من الجفاء؟ لعنة الله عليك يا نعيمة!.. لا والله... أنتِ لا تستحقين اللعنة! لعنة الله على الهوس والسخف، اللذين لا أستطيع التخلص منهما! لعنة الله عليّ أنا، وعلى السفهاء الثلاثة الذين يزينون لي هذا الطريق!

- أتذكّر هذه القطيعة جيداً، وأتذكّر كذلك أن أبا عودة هو الذي تولى إعادة المياه إلى مجاريها.

قال سلمان:

رجاه والدي أنْ يرأب الصدع الذي حدث، فسأله أبو عودة عن سبب الزعل، ولقد ضحك طويلاً، حين علم أن الذي أشعل فتيل الجفاء هو قول أبي: إن جرح نعيمة نظيف.

- رحمهم الله جميعاً! كان أبوك طيباً سمحاً.

- لم تكن مبادرته خالصة لوجه الله تعالى، فلقد أحسّ بحاجته إلى أبيك. حدث أمر، جعله يحسّ أنه أحوج ما يكون إلى أبيك.

* * *

فتح الحاج صالح باب الدار ليرى مَن الطارق، ففوجيء بأبي عودة ونومي الأسود وخليل قنديل والغرماء الثلاثة.. أبي حاتم وإبراهيم الكواز وعطا الله مرهون، الذين راحوا يرمقونه مبتسمين.

استقبلهم بترحاب ومودة، فلكلٍ منهم منزلة خاصة في نفسه.

أدار خليل قنديل الحديث بلباقة، بعد أن استأذن من أبي عودة، وقال:

أحلى الخلافات هي التي تحدث من الاختلاف في نبض القلوب، لا شيء في الحياة يستحق الزعل من أجله إلا (النسوان)، ولكن المسامح كريم. ثم خصّ الحاج صالح بالحديث، وهو يضحك:

أتدري ياعمي (أبو ضياء)؟! إن الطعنة التي تلقيتها أنت لا تُعَدّ شيئاً، قياساً بالطعنة التي وجّهها إليّ الملعون حسين حافي، ومع ذلك فقد سامحته.

وراح يقصّ عليهم ما جرى بين حسين حافي وصديقته أم نجم - دون ان يذكر اسمها - وهم يضحكون.

سأل أبو عودة الحاج خلف:

هل قبّلتَ الجرح حين رأيته؟

أجابه ضاحكاً:

هذه فاتتني!

وراح أبو عودة يقص عليهم قصة مقتل ابن عمه (جساس)، حين خاضوا، يوم كانوا في الأرياف معركة شرسة ضد عشيرة أخرى. أصيب ابن عمه باطلاقة نارية في صدره. وعندما انتهت المعركة

جاء أبوه، وجثا عند رأسه، ثم أخذ يقبّل الجرح.

وقال أبو عودة:

بعض الجروح تقبيلها واجب وشرف. ولو يتاح لي أن أرى جرح نعيمة لقبّلته (وَجْه وكُفَهْ)

* * *

- لا أدري ما هو سر تعلقهم بالنساء إلى هذا الحد. لقد كنت أسمع من أبي في أثناء سهراتهم عندنا في البيت أشياء عجيبة، كما كنت أسمع عنه أشياء أكثر عجباً. إنهم يذكّرونني بذكور فصيلة معينة من الفراشات. عمر الذكور في هذه الفصيلة لا يتعدى الأسبوعين، يقضونهما بالتناسل.

- يبدو أنّ أبا فرج واحد من هؤلاء الذكور. جاء إلى المطحنة ظهر أحد الأيام مبتسماً. جلس قرب أبي، وقال، وهو يغمز بعينه:

اليوم غسلت!

فتجاهل أبي مغزى إشارته، وقال:

أنت محتاج إلى الغسل منذ أيام.

فقال مبتهجاً ممعناً في التأكيد:

لا.. لا.. سبحت.. سبحت!

ولقد نُقل عصر ذلك اليوم إلى المستشفى لمعاناته من آلام حادة في الصدر، وأسلم الروح مساءً، رحمه الله!

- رحمه الله! لم تقل شيئاً عن الحادثة التي ألجأت أباك إلى

أبي، وعجّلت في الصلح.

- التقى أبي (نزيمه حديد) ثانية.

* * *

هـي حديثـة السـكن في المحلـة. اشـترى زوجهـا بيتـاً في شـارع الجامع الكبير، الذي يُعَدّ أفضل شوارع المحلة وأنظفها. البيت يبعد خمسين متراً عن بيت الحاج خلف. الزوج بائع سجاد في سوق المستنصرية. وهي في الأصل من كركوك.

كل ما فيها يقول إنها فريدة ومميزة. معتدلة القامة، جميلة الوجه، أنيقة الشكل والسلوك، رقيقة، تتعامل بأدب جمّ وترفّع، صوتها هادئ رخيم.

ملبسها أنيق دائماً، وطراز ملابسها محتشم، ولكنه باهر التناسق زاهي الألوان.

إنها زهرة كاردينيا في حقل برسيم.

أبقت رصانتها واعتدادها بنفسها كواسر المحلة بعيدين عنها، يرمقونها كما يرمقون فاكهة محرمة.

أشاروا إليها على مسمع من الحاج خلف إشارات عابرة سابرين غوره للكشف عن دخيلته، ولكنه صدّهم محذراً ومُذَكّراً بأنّ (للجيرة) حرمةً. منهم مَنْ صدّق، ومنهم مَنْ كانت جذور شكوكه أقوى من أن يقتلعها مثل ذلك الادعاء.

غالب نفسه كثيراً. عاش، وهو يراها أعنف صراع نفسي خاضه في حياته، صراع مستديم، سقطت فيه ضحايا كثيرة من

طريق الصراع.. شياطين الهوى وملائكة الفضيلة، وأثخنت الجراح مَنْ بقي على قيد الحياة منهم. ولم تفتر يوماً الرغبة في مواصلة القتال لدى الطرفين. وكلما سقطت أفواج من المقاتلين قَدِمَتْ إلى ساحة المعركة أفواج جديدة بعزم جديد.

كان يكتفي بالنظر إليها من بعيد. جلس يوماً في مدخل المطحنة على كرسي من (الجريد)، ينظر إلى السابلة، وأمامه (النارجيلة)، فمرت به، وهي في طريقها إلى السوق، أنيقةً ساحرة. هبّتْ نسمة هواء، فأزاحت طرف عباءتها الأسفل، ليبدو أسفل ساقيها قطعتي (جُمّار)، يغطيهما جوربان حريريان أسودان (مخرمان). شهق، ودون وعي قال: (يُمّه).

يتذكر أول مرة ألقت عليه فيها التحية، مثلما يتذكر اليوم الذي بُشّرَ فيه بمولد ابنه البكر حاتم. ولئن كان قد ندم على فرحه بذلك المولود، إنه على ثقة من أن فرحه هذا لن يعقبه ندم. شيء ما في ذهنه يؤكد له أن من يعرف هذه المرأة لن يشعر بالندم.

كعادته، حين لا تعمل المطحنة، اتخذ مجلسه في مدخلها، ليس عفةً منه، بل حفاظ على الهيبة، ولن يخسر شيئاً، ما دام يرى (الرايح والجاي).

رآها تقترب منه باستحياء. لا يدري لماذا تركزت نظراته على قدميها. دون قصد منه صارت نظراته معلقة بقدميها.. بقطعتي (الجمّار) الشهيتين. هي المرة الأولى التي يرى فيها أظافر قدمين ملوّنة، تبرز من الفتحة الأمامية لـ (شحاطة) ملونة. أحسّ بأن تلك الألوان قد غمرت قلبه، فاستحال سجادة ملونة تمشي عليها

الضيفة الكريمة، حاملة البشرى بقبوله في جنة الأحلام عضواً دائماً.

- صباح الخير!

- صباح النور!

وصدحت في أعماقه موسيقى سماوية، تصاحبها أغنية المحبين الخالدة (صباح الخير محبوبي صباحك... يَنورك لاح عالدنيا بصباحك.. صباح النور يَعّيُوني.. بيك الخلك لاموني.. صباح النور محبوبي صباحك.. صباحك).

- أنا جارتك!

- أتشرف!

...... أنتِ جارتي؟! أنتِ أمي وأبي... أنتِ عشيرتي الأقربون.. الصالحون منهم، أما الطالحون فسأضعهم في (خانة) أم حاتم.

نهض واقفاً بأدب، وأشار إليها بكل احترام لتجلس. شكرت له لياقته، وقالت:

اشترى أبو الأولاد يوم أمسِ بلبلاً وعصافير ملونة، ونسي أن يخبرني ماذا أطعمها، وهو ليس موجوداً الآن.

ثم أكملت برقّة وحنان:

أخاف عليها أن تموت!

... يالسعادتها إذ تخافين عليها! اطمئني فلن تموت وأنتِ بالقرب منها.. أنتِ تبعثين الحياة في الحجر.

ابتسم قائلاً:

لن تموت بإذن الله!

نادى حفيده جندح، وناوله ربع دينار قائلاً:

كيلوين دخن من حسين حافي، وبُطل بارد. البارد أولاً.

انطلق جندح مثل السهم.

أشار إليها ثانية لتجلس. تناول كرسياً ومسح مقعده بقطعة قماش وقدّمه إليها.

- الله بالخير!

ردت مبتسمة:

- الله بالخير!

- من غير المألوف أن سيدةً مثلك تُقابَل بمثل هذه التحية، ولكننا معذورون، فنحن أناس بسطاء. والحقيقة أنها مختصرة، إنها (صبّحكم الله بالخير) أو (مسّاكم) ومع هذا لو كنت أعرف تحية أرق منها لقلتها!

- هذا من لطفك وكرم أخلاقك. إن فيها كفاية. لستم وحدكم أناس بسطاء، فنحن أيضاً بسطاء.. وبسطاء جداً.

... أنتم بسطاء؟! (أروح فدوه لهاي البساطة)!

وترددت في خاطره أغنية المطربة صباح (علبساطه البساطه... ياعيني علبساطه)

- سمعتُ المحروس يقول (جدو) هل هو حفيدك؟

... من أين لجندح أن يقول (جدو)؟ لقد قال (جدّي)

- نعم إنه حفيدي.. توفي والده، فجئت بهم ليسكنوا معنا.

- اللّه يحفظكَ لهم!

- شكراً! اللّه يحفظك ويحفظ عيالك!

وأرجو أن تعذرينا إذ قصّرنا في واجب التعرف بكم، إننا مستعدون لأداء أية خدمة.. أنا وأهل الشارع جميعاً.. أهل محلتنا طيبون.

جاء جندح راكضاً، وهو يحمل كيس الدخن في يد، وقنينة (كوكا كولا) في اليد الأخرى.

- أحسنت يا بطل!.. ضع البارد أمام خالتك، وأحضر قدحاً نظيفاً بسرعة.. وهات الدخن.

أعاد جندح إلى جده المبلغ الباقي من (ربع الدينار) فمنحه جده عشرين فلساً، تناولها مبتسماً، متمنياً أن تزورهم هذه المرأة كل يوم.

- الدخن للعصافير الملونة، أما البلبل فيأكل الكرفس والخيار والجبن والتمن المسلوق. وإذا شئتِ فسأرسل (جلال) معك، لتري كيف يطعم هذه الطيور.. إنه خبير بهذه الأمور.

- سأكون ممتنة لك ولجلال، قبل أي شيء أرجو أن تخبرني ما هو ثمن الدخن.

- هذه المرة الدخن هدية من جلال، لأنه يحس بمحبة لهواة تربية الدواجن. للأسف نحن لانتعاطى سوى الحنطة والشعير. يوجد محل قريب في الشارع الرئيس المؤدي إلى السوق يبيع الدخن. أرسلي (جلال) متى شئتِ ليبتاعه لكِ.

... واستحلفك بالله.. أتوسل إليك! ألا تذهبي أنتِ بنفسكِ، لأن الخطر.. كل الخطر هناك كامنٌ يترصد.. (قنديلٌ) سيحرق آمالي!

- لا أدري كيف أشكرك. لقد تشرفت بمعرفتك!
- أهلاً وسهلاً!

... كيف تشكرينني؟... (زوروني بالسنة مَرَّه)

ودعته بابتسامة رصينة، وغادرت بوقار.

لم يدرِ ما الذي يجب أن يفعله أولاً، أيصعد إلى أعلى النخلة، ويلقي بنفسه إلى الأرض على رأسه؟ أم يخرج إلى الشارع، ويبدأ بالقفز، مثل قفزات (عبود بكره)، والأطفال خلفه يصفّقون ويرددون (شماعية.. نفر واحد)؟

... أيُعقل هذا؟ هنيئاً لك يا خلف يا ابن سليمان!.. وعلى طريقة الملقّنين عند الدفن.. يا خلف يا ابن أمَةِ الله! إذ صرتَ خليفة الله في أرضه.. نعم.. أنتَ سلطان السلاطين!.. أنتَ الآمر الناهي، إذا شئتَ أن تحكم بالإعدام على غريمك الحاج صالح وأعوانه.. زمرة السوء والغواية فأمرك مطاع، أو أردت أن تعفو فلك الأجر والثواب..أعفُ.. "أعفوا هو أقرب للتقوى".. أعف عنهم، وخلّ بينهم وبين نعيمة! آه لو تدري يا صالح!.. آه لو تدري.. لانفجرتَ من الغيظ!

وابتسمتْ، وهي في طريقها إلى البيت. كانت مترددة في الاقتراب منه. أحسّت بلسع نظراته، عند مرورها اليومي بالمطحنة، وإنْ أجهد نفسه للتستر على ما فيها. لا شك في أنه رجل محترم.

وزاد احترامها إياه حين استعادت ما عاملها به من لياقة وتوقير، وازدادت ابتسامتها إشراقاً حين تذكرت ارتعاشة يده، وهو يضع القدح أمامها.

وأخذت تحييه بابتسامة رقيقة حين يكون وحده.. وحين يكون وحده يرى لزاماً عليه أن يقف إجلالاً، وهي تمر من أمام المطحنة.

وتعبيراً عن ثقتها به وبنفسها لم ترَ مانعاً من الحديث الخاطف معه.. حديث خاطف ليس إلا.. السلام عليكم.. عليكم السلام.. كيف الحال؟.. لله الحمد!

هناك دائماً دعوة إلى الجلوس.. دعوة مؤدبة رصينة.

في كل مرة تحدثه فيها يشدّها أدبه ورصانته، فتقاوم ما وراء هذا الانشداد بيسر.. تقاومه بنجاح.. تقاومه من دون تأنيب ضمير، لأنها تعرف حدودها، تعرفها جيداً، ولكنْ يحلو لها أن تقرأ في عيون رجل جاوز الخامسة والأربعين نشيد هوى، يقرؤه فتى في العشرين.. فتى صوته دافئ عميق، كأنه صدى (الآه)، وهي تتردد في تجاويف القلب متوهجة بلوعة الاشتياق. وأخذت تأنس بنظراته الحيرى الخجلة، إنها ليست مثل نظرات ذلك الوقح المتنمر الذي يسمّونه القنديل.

ولم يؤنبها ضميرها، لأنها لم تتجاوز حدودها، ولم تفرّط بمكانة المقدسات، ولكنها صارت تحب قراءة نشيد الهوى في عيون ابن الخامسة والأربعين، ثم راحت تخاف حبَّ القراءة هذا، فأخذ ضميرها يؤنبها. والتمست لنفسها الأعذار.

وفي غمرة الدوامة التي أثارها تأنيب الضمير والتماس الأعذار

كان لها حديث خاطف معه، أعقبته دعوة إلى الجلوس، دعوة عطّرها الرجاء واللهفة والأمل، دعوة كأن هاروت وماروت تعاونا على خط حروفها. وأحسّت بخوف شديد.. إنها تخاف السحرَ.

جلست وأنفاسها تتصاعد. استعاذت بالله من الشيطان الرجيم، فعادت إليها الطمأنينة، ولكن ضميرها عاد إلى تأنيبها.

رحّب بها الحاج خلف ترحيبه المعتاد، ولكنّ فرحاً في داخله أزال في ثوانٍ آثار السنين التي تركتها على وجهه... إن سحر هاروت وماروت ما يزال يفعل فعله، فقررت أن تضع حداً لكل هذا، وأن تعاقب الصَّبيَّةَ المدللة المتدثرة بجلدها بحرمانها من هوايتها الجديدة.. حب القراءة العابث الذي سيهدد حياتها.

وضع جلال أمامها قنينة (الكوكا كولا)، وقدّم لها الحاج خلف بنفسه قدحاً، وكل جسمه يرتعش.

قالت من خلال ابتسامة شاحبة:

شكراً لك! إن الحديث معك يسعدني، ولكن الناس لا ترحم. إنهم يسيئوون الظن، أما أنت فأخ كريم، وستبقى دائماً ذلك الأخ الكريم.

تهاوت أحلام وردية حديثة العهد برؤية النور، وداست أقدام صِبْية عابثين حديقة الورد الرائعة التي اجتهد في تنسيقِها.

... ما الذي حدث؟ لم تبدر مني إشارة واحدة إلى اللهيب الذي يسكنني، ويستمدّ من دمي وعظامي الوقود! وقد أمسكت السوط لنظراتي لئلا تتسرع واحدة منها، فيزلّ لسانها فتشي بما تحت الضلوع من صخب.

ودّعته وقامت مسرعة.

... هكذا أفضل... نعم هكذا أفضل ألف مرة، لئلا تسرفي في العبث.. فتأدبي! تأدبي وتذكرّي أنك زوجة وأم.. اتركي العبث وسخافات القراءة في عيون الكهول. حرام عليك أن تعبثي باعصاب هذا الرجل الفاضل، وحرام عليك أن تسيئي إلى سمعة الزوج الطيب!

... ولكنني سأسلم عليه.. سأبقى أسلم عليه شئتِ أو أبيتِ، وسأواصل قراءة الأناشيد التي أحببتها.

سأرسم عيني كهل في الخامسة والأربعين، أو في الستين.. بل سأرسم عيني شيخ في السبعين واكتب على حدقاتهما الأناشيد بنفسي، ثم أقرؤها بصوتٍ عالٍ، شئتِ أو أبيتِ. لقد أحببت قراءة الأناشيد في عينيه.

وانكمش الحاج خلف.. انزوى يئن.. إنه لا يعرف كيف يوقف نزيف آماله، أو أين سيواريها الثرى، وها هي ذي مسجاة أمامه تجود بأنفاسها!

مرت بالمطحنة مرات، وهي في طريقها إلى السوق ولم تره. وطلبت من جندح أن يبتاع لها الدخن، وأن يبلغ جده السلام.

... أيعقل هذا؟ إن هذه لعبة لا أعرف قواعدها، وليس لي قدرة على الدراسة والتعلم من جديد، ليس في العمر متسع.

وانساب في خاطره صوت تلك المطربة الشابة، الحلوة (الناعمة) التي يُسلم زمامه إليها، قبل أن ينساب إلى مسامعه صوتها الناعس الحبيب.. إنها نجاة الصغيرة..

بدأ اهتمامه بها حين سمع من خليل قنديل أن شاعراً مصرياً كبيراً أحبها، وأخلص لها الوداد، وبقى يحبها على الرغم من صدها إياه، ومات وهو يحبها.

وراح يصغي إليها بشغف ولهفة. ولم يكن يدرك معاني كل ما تقول، ولكن يكفيه أنّ ما يسمع منها يحكي قصة حب.. قصة قلب يتعذب.

وانساب صوتها يقول:

أيظـــن أنـــي لعبـــة بيديـــه   أنـا لا أفكـر في الرجـوع إليـه

وتمنى لو يستطيع قول الشعر.

رأتـه مـرات، تخللتهـا تحايـا مـن بعيـد ووقـوف سـريع متعثـر، ومنضدة صغيرة انقلبت وإناء تكسّر. أما السلام وأما الحديث الخاطفُ، فلا سلام ولا حديث.

وبعد أشهر دوّى خبر عجيب غريب.

... أيُعقلُ ما حدث؟ أيمكن أن يحدث ما حدث بلا تخطيط ولا رجاء ولا دعاء؟

مات زوجها.

... أيمكـن هـذا؟ كيـف ولمـاذا؟ أهـو تخطـيط القـدر أم هـي المصادفة؟ أهي قصة (فلم هندي)؟

بُهت بادئ الأمر، ثم شرد ذهنه، ولم يستعد شيئاً من صفائه إلا بعد حين، ليسفر الصفاء عن ابتسامة خاطفة غير نقية، أنّبه ضميره كثيراً، لأنه سمح لها أن ترتسم على محياه. حاسبَ نفسه

بقـوة وعنّفهـا ، فلـيس مـن شـيمه الاسـتهانة بـأحزان الآخـرين أو مصائبهم، لم يكن يوماً هكذا.

... أهذا أنت يا خلف؟! يا حاج خلف! يا مَنْ تدّعي المروءة وتفخر بها! من أين لكَ كل هذا السخف والطيش؟ أهي عدوى، انتقلت إليكَ من الزمرة الغاوية؟ حقاً: من عاشرَ القوم أربعين يوماً..

وفي مجلس العـزاء المتواضـع كـان لأهـل المحلـة موقـف نبيـل حضوراً وإسهاماً، أثنى عليه أقارب الفقيد القليلون الذين حضروا، وكانوا ضيوفاً عند جيرانه.

غـض الحـاج خلـف الطـرف عـن تلميحـات أصـدقائه الـذين لم تنقطع محاولاتهم لسبر غوره.

برصانة الكهول ووجوم المعزّين كانوا يتحدثون، وهو يداعبون حبات مسبحاتهم عن المحظوظين الذين ينالون النعيم بغتة، فتزول بقدرة قادر العقبات التي تعترض طريقهم. أو يذكرون –بحكمة الشيوخ– أن الزواج الثاني هو أفضل مواساة وعزاء لأرملة حسناء.

ولم يعد يراها، لا يجوز أن يراها أحد، لأنها (تلزم عِدّه)، وليس ممكناً لها أن تفي بهذا الأمر، وهي وحيدة في البيت مع صغارها الثلاثة.. سعاد وميعاد ورشاد، فانتقلت للسكن مع قريبة لها.

أصابه رعب قاتل حين علم أنها ستنتقل. خشي أن تنتقل إلى كركوك.

... حتى لو انتقلت إلى هناك سأتبعها.. سأتبعها إلى آخر الدنيا.

وقفت سيارة شحن أمام دارها، ترجّل منها شاب وعدد من الحمالين، وبدأوا بنقل أثاث البيت.

وجاء من يسأل عن جلال ليخبره أن أم سعاد تطلب أن تراه. ذهب جلال إليها ، ثم عاد حاملاً قفصين.. قفص البلبل وقفص العصافير الملونة هدية منها إليه.

غادرت بيتها تحت جنح الظلام متلفعة بالسواد. وحلّ في البيت ساكن جديد.. مستأجر. رجل دمث مؤدب، كان يتولى شهرياً إيصال مبلغ الإيجار إليها. ومنه علم أنها تسكن في الوزيرية مع خالتها. ولم يعد يراها.

* * *

- وماذا حلّ بالبلبل والعصافير؟

- لم يُعِرْ أبي العصافير اهتماماً ، فقام جندح ببيعها مع القفص، أما البلبل فقد طلب أبي أن يوضع في المطحنة قرب مجلسه ، وراح يعتني به بنفسه.

* * *

وصار البلبل والقفص سلواه. يطعمه بيده ويتأمله طويلاً. وفي يوم اختفى البلبل.. وُجِدَ باب القفص مفتوحاً ، ولم يعرف أحد السبب الحقيقي لاختفائه.

أحقاً نسي الحاج باب القفص مفتوحاً أم أطلقه عمداً. وبقي القفص فارغاً.

استأذن جندح جده في بيع القفص.

- بكم ستبيعه؟

- بستين فلساً.
- هذه مائة فلس. خذها واترك القفص مكانه.

وطلب حاتم الذي يحب الاستحواذ على أي شيء، طلب من أبيه أن يعطيه القفص فرفض.

- سأقتني بلبلاً صغيراً.. فرخ بلبل، عسى أن يذكر حناني حين يكبر.

واقتنى الحاج البلبل الصغير، وراح يعتني به بنفسه. وكبر البلبل فأطلقه، ليقتني بلبلاً صغيراً فيعتني به، ثم يطلقه.

وضع القفص أمامه، وبيده قطعة جبن، وراح يطعم البلبل منها، ورآها واقفة أمامه.

أجفل، ولم يقوَ على النهوض، أو الكلام ليدعوها إلى الجلوس. جلستْ أمامه صامتة، وراحا يتبادلان النظرات.

نفض ركام الزمن عن دواوين شعره، وأطلق لجياد أشواقه الأعنة.

قد لا تكون لغته نقية فصيحة، ولكنها صادقة، يعطرها نقاء البساطة، إنها لغة تعطرها رائحة التراب عقب هطل المطر، وعبق النعناع إثر رشة الماء ضحى صباح صيفي.

أعلمته أن المستأجر الأول ترك الدار، وأن مستأجراً آخر انتقل إليها، ولكنه إنسان مشاكس، أخذ يتمادى ويتأخر في سداد الإيجار. وكانت قلقة لأنها ليست معتادةً على التعامل مع أمثاله، فوعدها الحاج خلف خيراً.

سألته مشيرةً إلى البلبل:

بدأت تربي البلابل؟

– تعلمت لغتها، فوجدت أنها تجيد الاستماع، ولا تستخف بمشاعر أمثالي من الشيوخ، وأنها تكتم السر.

... ما أثقل تلك السنوات الثلاث وأشد وطأتها.

وسأل نفسه ثانية أيقفز من أعلى النخلة إلى الأرض أم يقفز مثل قفزات عبود بكره؟

... أأنا على هذا القدر من الصلاح والطهر، لتكافئني هذه المكافأة يا رب؟ لك الحمد! اسمع يا حاج صالح! ياغشيم.. يالئيم! كم شنعّتَ عليّ وظننت بي الظنون أنت وزمرة الغواة! ها هي ذي شهادة البراءة بين يدي، فموتوا بغيظكم!

لا ضير في قفزة صغيرة من قفزات عبود بكره!

وردد في دنيا أحلامه واحدة من أغنيات (وحيدة خليل) الأثيرة.

(أنا وولفي تسامرنه وحجينه.. بنزهة والبدر شاهد علينه.. العذيبي تِنَسّم.. عبير الورد يشْتَمْ.. أنا وولفي.. أنا وولفي تسامرنه وحجينه).

* * *

سألتها بهيجة ابنة خالتها:

ها! بشرّي!

– خير.. إن شاء الله!

– ما الذي جرى؟

- دعيني أرتاح قليلاً.. أكاد أموت من التعب والعطش!

... بل أكاد أطير من الفرح. يكفي سكوتاً وبروداً وجموداً. من حقي أن أفخر بوفائي للمرحوم، ومن حقي أيضاً أن أتذكر أن لي قلباً ما يزال يخفق. لم أقترف ذنباً. ولعلك يا أبا حاتم لن تأتي بما يجعلني أندم!

- ألم ترتاحي بَعْد؟ حدثيني.. هل رايتِ المستأجر الجديد؟

- لم أره، ولم أفكر في رؤيته والحديث معه، لأنه شخص سيء. ذهبت الى الحاج خلف مباشرة، وعرضت عليه الأمر فوعدني خيراً.

- صاحب العلوة؟

- لا.. صاحب المطحنة.

- ذاك الذي يخجل كثيراً؟

- نعم.

سألتها، وهي تقترب منها ضاحكة مداعبة:

ألم يطلب منكِ رقم الهاتف؟

- أعطيته الرقم قبل أن يطلبه.

... وأعطيته قلبي.. ولو يشاء لأعطيته نور عينيّ.

طلب الحاج خلف من خميس جازي وكاظم حردان الذهاب إلى المستأجر الجديد ومطالبته بالالتزام بتسديد الإيجار في موعده المقرر وعدم المماطلة، فنفذا ذلك بأسلوبهما الخاص.

وبعد ثلاثة أيام جاءها المستأجر الجديد، وقدّم لها (إيجار)

الشهرين الماضيين، معتذراً بأن أحواله كانت سيئة، واعداً إياها بعدم التأخير مستقبلاً، مهما كانت الأسباب.

* * *

سأل الحاج خلف حفيده جلال:

ما الذي يعنيه لك الدرهم؟

لم يفهم جلال السؤال، فأعاده الحاج بصيغة ثانية:

إذا امتلكت درهماً فكيف ستنفقه؟

- أربعون فلساً تذكرة سينما بـ (أبو الأربعين) وعشرة فلوس (نص صمونه وعمبه).

- وإذا صار المبلغ مائة فلس؟

- ستون فلساً تذكرة سينما بـ (أبو الستين) وأربعون فلساً (صمونه وبيضة وعمبه أم اللبّ).

أعطاه الحاج مائة فلس، وأرسله إلى فاضل الحلاق ليطلب منه الحضور عنده.

حضر فاضل الحلاق بعد قليل.

- خير يا حاج؟

تلفّت الحاج حواليه، ثم نزع الغترة، فظهر شعر رأسه الأشيب. أشار إلى شاربه وحاجبيه ورأسه قائلاً:

فكر بالعلاج.

قال فاضل مبتسماً:

هذه بسيطة، ماذا عن الأمور الأخرى؟

تريث الحاج قليلاً قبل أن يقول:

جيدة.. ولكن لا بأس في الاهتمام بها أيضاً.

* * *

قال الحاج صالح لصاحبيه مشيراً إلى أبي حاتم، وهو يضحك:

هناك بعض الناس يتسترون بعلاج الشيب رغبة في علاج (الحبيب)!

فأجابه ابراهيم الكواز:

ولن يُصلح (الحلاق) ما أفسد الدهر.

وقال الحاج عطا الله:

وهناك تحركات مريبة تجري من وراء ظهورنا. إن مصادر معلوماتنا تؤكد هذه التحركات المريبة.

تعوّد الحاج خلف أن يواجههم منفرداً، فانبرى لهم:

إن هذا المريض المزعوم أكثر فتوة منكم، أنتم الثلاثة، ولولا مرض أم حاتم لكان لي الآن أولاد، لم (يسجلوا) في المدرسة، وأما التحركات المريبة فلن أخبركم شيئاً بشأنها، (لو تموتون)!

* * *

أوصل جندح رسالة جده الشفوية إلى فاضل الحلاق، وعاد إلى البيت مهرولاً. اغتسل وبَدّل ملابسه واستأذن أمه في الذهاب إلى السينما، الكائنة عند النهر الفاصل بين المحلة وقرية

(المنكوبين)، وهو يضع مائة الفلس على راحة كفه المبسوطة. ولما تأخرت إجابتها قال:

استأذنت جدي فوافق.

دخل موقع (أبو الستين) مزهواً، ممسكاً بيده (لفّة الصمون) الفاخرة.. إنها (العمبة أم اللّب) دليل الترف والثراء.

أسبغ جدّه عليه وعلى أخويه حناناً ورعاية بالغين، إذ فضلاً عن يتمهم إنهم إبناء وهيبة، ابنته الهادئة المطيعة الحنون.

قد يلهو ويضحك، ويشتطّ في لهوه وضحكه أحياناً، ولكنه حين يراها، وحين يتذكرها في خلواته ينصهر تحت وقدة الألم، ويبكي أحياناً دون أن يشعر به الآخرون.

حين تسلم عليه في الأعياد وتقبّل يده يقبّل جبهتها ويحتضنها، مثلما كان يفعل وهي صَبيّة.

ومثلما أحبّها أحبّ أبناءها. كان حريصاً على أن يجمعهم حوله، فيلاطفهم ويلاعبهم، ويهتز طرباً حين يسمع ضحكاتهم. سماع ضحكاتهم ورؤية ابتسامة أمهم من أكثر المسّرات أثراً في ديمومة سعادته. براءة الأطفال في عيني نوال، وحلاوة الروح لدى طلال، ولذعة النزق والمشاكسة والذكاء والمرح عند جلال، الذي ظل يسميه (جلالاً) برغم شيوع لقبه جندح وشهرته.

وشكرتْ وهيبة لأبيها هذا كله، وتولت خدمته حين أرهق المرض أمها. لقد تولت شؤون البيت كلها، وانصرفت إليها انصرافاً تاماً.

أحبّ جندح جدَّه، كان يهابه ويخشى غضبه، ولكن صار حبه

إياه أكبر من أي إحساس آخر. حرص على القيام بأي شيء، يُفرِح جدَّه حرصاً بريئاً فطرياً، لا تشوبه شائبة من رياء ولا نفاق، فحين يلمّع حذاءه، يضعه عند قدميه قائلاً بمرح:

تفضل سيدي! وأنا ممنون (تؤمر شي بعد)؟

أو يقبّل الحذاء، ويضعه عند قدمي جده قائلاً:

تفضل سيدي! بخدمتك (بعد شتريد، حتى الحذاء نبوسه!)

فيلكزه جده بالخيزرانة قائلاً: ملعون!

كان يضع الخيزرانة عند سريره، دون أن يستخدمها. وقد فسَّر ذلك تفسيراً منطقياً، إذ قال:

لكثرة ما ضربني أبي بها صرت معتاداً عليها.

ازداد ولعه بتنظيف سيارة جدّه، وارتقت كفاءته فأخذ ينظف المحرك، ثم راح يسأل أسئلة كثيرة عن أجزائه. وكاد يطير فرحاً حين قال له جده:

سأطلب من خالك سلمان أن يعلمك السياقة.

أثار الخبر في البيت تعليقات كثيرة مبتهجة، إلا تعليقاً واحداً لئيماً صدر من خاله حاتم، إذ قال له:

لن تحصل على إجازة سياقة، فستفشل في فحص النظر!

حاتم اللئيم بالفطرة، الذي ينظر إلى الحياة من زاوية واحدة قاتمة، هي حب المكاسب والاستئثار بكل شيء، يغيضه حب أبيه لجلال وأخويه، فيستثمر أية فرصة للسخرية منه وإيذائه.

جلس مرة عند أبيه في المطحنة، وجلال يلاعب جرواً صغيراً، فقال له ساخراً:

نحن يا جندح نعتني بك، مثلما تعتني أنت بهذا الجرو!

استفز كلامه أباه، فأجابه بحدة:

يا حاتم! حين يخلو صدر الانسان من القلب والضمير والرأفة، يصبح أقل شأناً من هذا الجرو الذي يلاعبه جلال. ولولا وجود هؤلاء الصغار لأسمعتك كلاماً آخر.

صبّ حاتم سخريته على عاهة جلال. على عينه المصابة.

دخل يوماً البيت، وأهله مجتمعون ظهراً عند (سُفرْة) الطعام. لم يكن أبوه حاضراً. جلس على يسار جلال، ثم قام، وهو يقول:

سأجلس في الجانب الذي لا يراه جندح.

ترك جلال (السُّفرة) ودخل غرفة أمه التي تبعته، فوجدته يبكي، فاحتضنته وراحت تبكي هي الأخرى. وحين تركا (السُّفرة) ارتسمت على وجه حاتم ابتسامة عريضة، مثل ثمرة (فطر) سامة.

* * *

– هل صحيح ما شاع من أن أباك هو من خطط للحادثة التي أعقبت إصابة جندح؟ سألت أبي فلم يكن متحمساً للإجابة.

– لا تصدق كل ما يُقال!

– ولكن أيُعقل أنّ جندح يخطط مثل ذلك التخطيط، وينفذه بنجاح؟

– ومن قال إن جندح هو الفاعل؟ لم يستطع أحد إثبات أي شيء ضده.

- سلمان، لست تتحدث إلى شخص غريب!
- سأقول لك الصدق. إن ابتهاجنا بما حدث منعنا من التقصّي الذي لا يعنينا.

* * *

حين أشارت أصابع الاتهام إلى واحد من الصّبية في مجموعة، اشتبك بهم جلال وجماعته في معركة بـ(المصابيد)، أصيب خلالها جلال لجأ الحاج خلف إلى الأعراف العشائرية في أخذ حق حفيده، لردع المعتدي.

استعان أهل الفتى المتهم برجل لوذعي محنك من أهل المحلة، هو الحاج (شجاع السامرلي). كان متحدثاً بارعاً قوي الحجة، قطع السبل كلها على الحاج خلف. لم تكن جبهة الحاج ضعيفة، إذ التفّ حوله صفوة أصدقائه، يشدون أزره، ولكن السامرلي كان مكتسحاً، يحتمي بكون المعركة ضمت صبية كثيرين، يتراشقون بالحصى عن بعد. وتمادى، فبدأ يزين للحاج خلف السماحة والعفو، ويذكّره بحقوق الجوار، بأسلوب الناصح الرصين.

أذعن الحاج خلف مكرهاً، ولكنه أخذ يغلي حين غادر السامرلي، وهو يقول له بتعالٍ:

أنا مستعد شخصياً لدفع تعويض لحفيدك.

شكر له الحاج خلف طيبته.

انكفأ على نفسه، فلزم المطحنة، دون أن يلتفت إلى العمل.

حتى البيت، لم يعد يدخله إلا ليلاً لينام، تحاشياً لرؤية ابنته التي خذلها، ولم يستطع أن يخفف عنها.

كان يشعر بهوان شديد، وبأنه صار شاهداً على ضعف العزيمة وعلى الرخاوة. ولكنّ أصدقاءه الخلّص صاروا السند والملاذ، فأحاطوا به مواسين ومخففين عنه العناء. ثم بدأ يستعيد توازنه، فراح يستدعي حفيده كل مساء، ويحدثه طويلاً، قاصاً عليه حكايات مما حدث له، ومما شاهده من إصابات تلحق بالرجال، ولكنها لا تعجزهم، فينهضون بعدها، أقوياء كما كانوا. ولكنه كان ينزف ويئن دون أن تندّ عنه إشارة.

وبدأ جندح يستعيد توازنه هو الآخر، فابتسم مرة أو مرتين في أثناء حديث جده. ظل مدة طويلة مطأطأ الرأس حزيناً، مذهولاً، ثم أخذ يعتاد الحالة شيئاً فشيئا. وحين أوشك على العودة إلى سابق عهده استدعاه جده.

- كيف أنت؟
- بخير.
- دائماً إن شاء الله! أود لو نذهب، أنا وأنت إلى (السينما)، ولكني متعب، فاذهبْ مع مَنْ تختار من أصدقائك، (اعزمهم على حسابي).

جاءت ابتسامة الامتنان المنكسرة على وجهه أصدقَ تعبير عن شكره.

- مَنْ هم أحبُّ أصدقائك إلى نفسك؟
- أحمد فرحان وجمال عباس.

- لماذا تحبهما؟
- لأنهم (سباع وخوش وُلد).
- (سباع) نعرفها، ولكن ما معنى (خوش ولد)؟

تريث قبل أن يقول:

إنهم يحبونني، وهم معي دائماً.

- وأين كانوا عند إصابتك؟

قال بحماسة، ساعياً إلى ردّ تهمة موجهة إلى صديقيه، أحسّ بها في سؤال جده:

احتضنني أحمد فجرح رأسه، وأصاب جمال اثنين من أولئك الأولاد.

- ألم ينقطعا عن زيارتك؟
- كلا.
- ماذا قالا بعد إصابتك؟
- إنهما يطلبان مني أن نتعارك معهم ثانية.
- وأنت ما رأيك؟

لم يُجب، فكرر جده السؤال.

أجاب بصوت مختنق، وهو يكاد يبكي:

أخاف أن تصاب عيني الأخرى!

انتفض الحاج خلف، ولكنه سيطر على نفسه، فتكلم بصوت خفيض، لئلا يخيف حفيده.

- إياك أن تفكر هكذا! إياك أن تخاف! هذا أمر أراده الله سبحانه. منذ أن جئت إلى الدنيا وهذا الأمر مقدّر لك. وإذا أراد الله

سبحانه أن تصاب عينك الأخرى فستصاب حتى لو كنت جالساً قرب أمك. إياك أن تفكر هكذا! هل فهمت؟

هزّ رأسه بالإيجاب، فواصل جده الكلام:

قال الطبيب إن إصابتك يمكن علاجها، وسأعالجك إن شاء الله، حتى لو بعت المطحنة والسيارة وثيابي.

وناول حفيده نصف دينار، وهو يقول:

اذهب معهما إلى السينما، واجلسوا في (أبو الستين) واشتروا أفضل (لفّات)، ولا تدعْهما (يدفعان) شيئاً. اشتروا كل ما تشتهون.

عقدت البهجة لسان جلال، فلم يقوَ على قول شيء، فاكتفى بتقبيل يده جده، وغادر راكضاً.

استدعاه جده وقال:

جلال! ما قلته لك الآن وما سأقوله مستقبلاً سرّ بيني وبينك، لا تخبر عنه أحداً شيئاً حتى أمك.

وأخذ من حين لآخر يستدعي حفيده ويطيل الحديث معه. واستدعى يوماً ولده (فوزي) إلى المطحنة وحدّثه حديثاً طويلاً، ثم طلب حضور جلال.

أخذ الحاج خلف وأصدقاؤه يرتادون المقهى الذي اعتاد الحاج شجاع السامرلي ارتياده. راح يسلم عليه كلما رآه، فيرد الحاج شجاع السلام باعتداده المعهود وابتسامة النصر البغيضة، والحاج خلف ينظر إليه بإمعان، وعلى وجهه ابتسامة غامضة.

أرسل الحاج خلف في طلب اثنين من أبناء إخوته، عُرفا بالجرأة والشجاعة، وطلب منهما البقاء عنده.

* * *

بناية المدرسة التي يدرس فيها أبناء المحلة تشغلها مدرستا (الكفاح) و(الموارد)، والدوام فيها مزدوج، إحداهما صباحاً والأخرى ظهراً بالتناوب، وعند نهاية الدوام الصباحي يتجمع طلاب المدرسة الثانية عند باب البناية، حيث يقف باعة (اللبلبي) و(العمبة) والحلويات وغيرهم.

هرج ومرج يبلغان الذروة عند مغادرة طلاب المدرسة الأولى، فيحدث زحام وتدافع شديدان.

جندح وأحمد فرحان وجمال عباس واقفون جانباً، يتفرسون في المكان والوجوه، وكأنهم يبحثون عن شخص ما. قليلاً، ثم تقدم أحمد فرحان باتجاه باب البناية، يتبعه جندح، على بعد خطوات. خرج طلاب المدرسة الأولى، ففسح لهم الطلاب المتجمعون المجال. جرى احتكاك بين أحمد فرحان وأحد الطلاب، فتضاربا بالأيدي، فأسرع جندح لنجدة صديقه، واشتبك مع أحد أصدقاء ذلك الطالب، فتلقى ضربة تهاوى على إثرها إلى الأرض، وأخذ يتدحرج، وهو ممسك رأسه، وأخذ يصيح بأعلى صوته (آخ رأسي) تجمّع طلاب المدرستين وحدث زحام شديد، فاندفع جمال عباس لنجدة صديقيه وأخذ يضرب بيديه وقدميه. أصابت ضربة من إحدى قدميه صينية ملآى بـ(الكَوجة)، وضعها أحد الباعة على تخت خشبي ذي مسندين. تناثرت (الكَوجة) بين أرجل الطلاب، فانكبّ كثير منهم على الأرض بين جامع وطامع. ازداد الزحام والجلبة، وفي هذه الأثناء اصطدم أحد الطلاب بالفتى الذي اتُهِمَ بإصابة عين جندح، وهو طالب في تلك المدرسة أيضاً، فسقط على

الأرض بين الطلبة المتزاحمين على (الكَوجة). وفجأة علا صراخ شديد، ونهض ذلك الفتى، وهو يضع يديه على إحدى عينيه، وثقب صغير في رقبته ينزف دماً. ساد السكون فجأة، وجاء المعلمون مسرعين، ونقل الطالب إلى المستشفى.

اتهم أهل الفتى جلالاً بالاعتداء على ابنهم، فردّ عليهم الحاج خلف بهدوء تام، وقريباه بالقرب منه بأنه على استعداد تام لتحمل التبعات كاملة، إذا ثبت أن حفيده هو الفاعل. وطلب منهم عقد جلسة مثل تلك، التي عقدوها سابقاً، على أن يحضر معهم الحاج شجاع السامرلي.

رفض الحاج شجاع المشاركة في جلسة فض النزاع، متذرعاً بسوء حالته الصحية، فأرسل إليه الحاج خلف رسالة شفوية مفادها: إما أن تحضر وإما أن تكون خصماً لي أمام (العوارف).

عُقِدَتْ الجلسة، فطلب الحاج خلف أن يمثّل السامرلي أهلَ الفتى المصاب، ووكّل صديقه الحاج صالح للحديث نيابة عنه، وظل صامتاً، يراقب السامرلي.

أبدى الحاج صالح فنوناً مثيرة من الدهاء، وأثبت قدرة عالية على المناورة، فردّ اتهام أهل الفتى، مشدداً على أن هناك كثيراً من الشهود، يؤكدون أن جلالاً أصيب في بداية الاشتباك، وسقط على الأرض لشدة إصابته، كما كرر الحجج السابقة التي تذرّع بها السامرلي، الذي تضاءل كثيراً في الجلسة الثانية.

وحين طلب أهل الفتى (اليمين) وجّه الحاج صالح سؤالاً إلى السامرلي قائلاً:

ماذا تقول يا حاج شجاع في هذا الطلب؟

نكس الحاج شجاع رأسه، ولم يُجب، فقال الحاج صالح موجهاً كلامه الى أهل الفتى:

حين طلب الحاج خلف منكم (اليمين) قال الحاج شجاع، الذي كان يتحدث باسمكم إن الصغار لا يحلفون والكبار لم يكونوا حاضرين، وأنا أقول إذا أديتم اليمين فسيؤديه الحاج خلف.

لم يبقَ هناك ما يقال إلا الحث على الصلح، وتناسي ما حدث وتصفية النوايا.

أذعن أهل الفتى أمام قوة الحجة، مثلما سبق للحاج خلف أن فعل.

سلّم الرجال على بعضهم، وقال الحاج خلف للسامرلي وهو يصافحه:

تمنياتي لك بالسلامة، وأنا مستعد للقيام بأية خدمة من أجل علاجك!

تناقلت المحلة أنباء الحدث باهتمام كبير، وصار الجميع ينظرون إلى جندح بإعجاب.

غمرت البهجة بيت الحاج خلف، ولاحت الفرحة على وجوه الجميع، إلا وهيبة التي راحت تبكي من جديد.

أولم الحاج وليمة، دعا إليها الأصدقاء. حضر ابنه حاتم، الذي بدت إصابة جندح وما تلاها من أحداث شيئاً لا يعنيه، فقال له أبوه:

لا مانع من حضورك، وإن كانت هذه الدعوة مقامة للذين يهتمون لأمر جلال.

* * *

أشار خليل قنديل إلى جندح، وقال لعاصم جندي:

هذا هو جندح.

- ناده.

ناداه خليل، فجاء يمشي بتأنٍ، على غير عادته، أناة تناسب الدشداشة الجديدة، والنعال الجلدي الأحمر (أبو الإصبع)، الذي لم ينتعل مثله حتى في الأعياد. أخذ عاصم ينظر إليه بإعجاب، وسأله:

هل تعرفني؟

- أنت عاصم جندي.

مدّ عاصم يده إليه مصافحاً مبتسماً، فصافحه جندح، وهو يبتسم بحياء.

وضع عاصم نصف دينار في جيب جندح، فحاول الاعتذار، ولكن خليل قنديل حثّه على قبوله، وأن يشكر عاصماً، فأخذه شاكراً، فقال عاصم:

(عفيه) يا بطل! أنا مثل خالك، إذا احتجت إلى أي شيء فاطلبه مني ولا تتردد.

انصرف جندح، فقال عاصم:

لقد دفع هذا الصغير ثمن الشجاعة مبكراً.

* * *

عادت الإشراقة إلى وجه جندح، فراح يمارس نشاطاته كسابق عهده، بطلاقته ومرحه المعهودين.عاد الى الدندنة، وهو يغسل

سيارة جده وينظف الشارع، أو ينظف الساحة، أمام دار الحاجة حسيبة، وحين قالت له، وهو يغسل الشارع أمام دارها:

(يُمَّه جَلاّوي! الله يحفظك.. يُمّه.. محفوظ بـ"سور" سليمان!)

أجابها:

(اتدللي حجيّه! ويوم زواج سمير أخلّي الشارع يركَض من النظافة!)

... (بس إذا خربط أشبعه كَتِلْ.. وكلام الله!)

وقد صدرت عنه إشارة، وهو يحادث جده، أكدّت أن له ضميراً حياً، يحاسبه ويلزمه بعدم التطاول والاندفاع، وبالموازنة بين قدراته وأقواله، فحين أراد أن يضفي شيئاً من التلوين المَرِح والجِدَّة على حديثه المعهود مع جَدّه، وضع الحذاء عند قدميه قائلاً: تفضل سيدي! وأنا ممنون (تؤمر شي بعد)؟ يا عيوني!

تريث قليلاً، ثم قال مستدركاً بانكسار:

يا عيني!

التقط جده الإشارة بوعي تام، فنكس رأسه، وقد احتقن وجهه.

* * *

جانب من الحياة في المطحنة وحديقة الدار، كان يمثل عالمه الخاص الذي لا رأي ولا سلطة لأحد فيه سواه. رضي بأن يتولى وحده تنظيف المطحنة والحديقة من أجل أن يضمن عدم تعكير الآخرين صفاء أجوائه وشاعريتها، وهو يطوف في رحاب ذلك العالم.

أعداد كبيرة من أعشاش (الطويرنيات) وأوكارها، توزعت بعناية على جدران المطحنة ومزاغلها قرب السقف (الجَمَّالي)، الذي أضفى على البناء لمسة شاعرية أخاذة.

أي موضع يمكن الإفادة منه والوصول إليه طوّره جندح ليصبح عشاً. وكان يرصّن الأعشاش بالطابوق ويفرش أرضيتها بـ(تراب الحنطة) والتبن، ويضع قربها أواني الماء وينثر كميات كبيرة من الحنطة والشعير.

ثبّت عدداً من الرفوف الخشبية على جدران المطحنة، ووضع عليها عدداً من (الحِلال)، لتتخذها (الطويرنيات) أعشاشاً. وكان يؤشر تواريخ وضع البيض، ليستبدل ببيض الطيور البرية بيض الطيور الأليفة، لأن تلك تعتني بأفراخها عناية فائقة، فتنشأ الأفراخ سليمة معافاة، وكان يتمنى لو يستطيع أن يقدم أي عون لطيور السنونو، وهي تعود إلى المطحنة كل موسم، لتبني أعشاشها في زوايا السقف.

وأما موارده التي تجهزه ببيض الطيور الأليفة فهي كثيرة، إذ لا يمكن أن يرفض مربو الطيور القريبون طلباته، خشية (مصيادته) التي يجيد التصويب بها، وقد صار لهم فيما جرى لستار (أبو البوريات) حين اعتذر عن تزويده بالبيض عبرة.

أغلب الأفراخ التي تنتج هي من الأصناف العادية، لذا يقوم جندح ببيعها، وسرعان ما تتحول أثمانها إلى تذاكر سينما و(لفات عمبه).

ثم اقتنى زوجين من الأصناف الجيدة، تكاثرا فصارا أساساً لمجموعته الجميلة.

* * *

تردد الحاج خلف كثيراً قبل أن يتصل بنزيمة. أمسك بسماعة الهاتف مراتٍ ليتصل بها، ولكنه كان يعود ليضعها، خوفاً مما لا يتوقع.. خوفاً من رد يجتثّ آماله، ثم عقد العزم على الاتصال، مستهيناً بكل المخاوف.

... اتصل بها وكفى تردداً! كيف تتتابك هذه الهواجس، وسجلك الحربي حافل بالمآثر؟

لعنة الله على الحب! إنه يجعل الأسود نعاجاً.

سمع صوتاً على الطرف الآخر من الهاتف يقول:

ألو.. نعم

خفق قلبه بشدة، وازدرد ريقه

- الست أم سعاد رجاءً!
- تفضل..!
- أنا أبو حاتم.
- أهلاً.. أهلاً.. أهلاً وسهلاً! المفروض أن أتصل أنا لأشكرك. اعذرني إذ تأخرت.. ألف شكر لك!
- هل اتصل المستأجر؟
- لقد جاء بنفسه معتذراً، وسلمني (الإيجار) المتأخر، ووعد بعدم التأخير ثانية. إنه أمر غريب! ماذا قلت له؟
- الحقيقة لم أقل له أي شيء. كلّفت بعض أولادنا الذين يجيدون الحديث مع أمثاله، فقاموا بالواجب.
- يبدو أنهم قاموا به أحسن قيام.

... يا الله! يا رب السموات والأرض! إنها تسترسل في الحديث

بارتياح.. اللهم أدِمْ علينا النعمة!

- أتأذنين لي بتسلم مبلغ الإيجار وإحضاره إليك؟

- أخشى أن أثقل عليك.

... تثقلين عليّ؟! أنتِ تثقلين؟! أثقلي ما شئت ولن تسمعي مني إلا الشكر والثناء، ولسان حالي يقول: هل من مزيد؟

ثم قالت بسرعة: يبدو أنني أسرفت في الدلال، لا يجوز أن تُحضر أنتَ المبلغ، المفروض أن آتي أنا لأتسلمه.

- لا فرق.. لا تجعلي بيننا مثل هذه الحدود. ثم إني أرغب في معرفة عنوان سكنك، إذ ربما أمرّ بكم لأجل السلام.

- أنت تشرفنا في أي وقت!

... أحقاً ما سمعت يا خلف ياابن أَمَةِ الله؟! يا ابن نشمية الفرحان! ألا تستحي فتفي بالنذر؟.. فتصعد إلى أعلى النخلة، وتلقي بنفسك على الأرض.. على رأسك وليس على قدميك.

تلفّت حواليه وفحص المكان جيداً، ولما لم يرَ أحداً قربه قفز قفزتين، مثل قفزات عبود بكره.

* * *

دققت المرأة التي فتحت الباب النظر فيه جيداً، وقالت: تفضل!

- أنا الحاج خلف.. أبو حاتم.. أرغب في رؤية السيدة أم سعاد، لقد جئتها بمبلغ (الإيجار).. لست أنا المستأجر، أنا جارها القديم.

قالت مبتسمة:

لقد حدثتني عنك كثيراً.. تفضل.. أهلاً وسهلاً! أتعبناك معنا.

- هذا واجب.

... ما هذا يا أم سعاد؟! هل (إنتاجكم) كله بهذا المستوى من الروعة؟

طويلة القامة، رشيقة القوام، بيضاء البشرة. شعرها كستنائي، ينساب على كتفيها، عيناها عسليتان جريئتان. وجه مستطيل، تزينه شفتان، أعلنتا الحرب على الوقار والرصانة منذ فجر التأريخ.

قادته المرأة إلى غرفة الضيوف، وانسحبت مرحّبة. هبّ واقفاً حين دخلت نزيمة. حيتها عيناه، قبل أن تبدأ هي السلام.

- أهلاً أبا حاتم! شرفتنا بهذه الزيارة الكريمة. لم أرغب في تكليفك، لولا أني اقتنعت بحجتك. أنت والله نِعَم الجار! كيف حالك وكيف أحوال الأهل؟

- بألف خير والحمد لله!

- ما هي أخبار المحلة؟

- يذكرونكم بخير دائماً.

... وهل يمكن ألاّ يذكروكم؟ وهل مثلكم ينسى؟

- لم تُتح لي الفرصة لأختلط بهم وأعرفهم بشكل جيد. أنت تعرف أن المرحوم كان منشغلاً، وأنا فضّلت ألا أتسرع في الاختلاط بالناس خشية المتاعب، ولكن الحمد لله عرفناك أنت، وفيك الكفاية!

- أهل محلتنا طيبون وبسطاء وأنقياء. من يعرفهم جيداً لن يشعر بالندم. قوام حياتهم الصدق والوفاء.

دخلت المرأة التي استقبلته حاملة صينية فيها أقداح الشربت.

بدّلت ثوبها وارتدت ثوباً آخر أنيقاً، زادها فتنة وجمالاً.

- ابنة خالتي (بهيجة)! إنها أختي وحبيبتي.

... هنيئاً لها!

- تشرفنا!

جلست بهيجة مبتسمة، وراحت تتفحصه بإمعان.

- كنت أرى مجموعة من الرجال، دائمي التجمع في المطحنة. يبدو أنهم صفوة الأصدقاء.

أجابها ضاحكاً:

إنهم خطيئتي الوحيدة، والتي أرجو أن يغفرها لي ربي يوم الدين!

شاركتهما بهيجة الحديث قائلة:

ما قيمة الحياة بلا أصدقاء ولا أحباب؟! إن الوحدة قاسية.

قالت نزيمة:

ليس أي إنسان صالحاً لأن يكون صديقاً. من الضروري التريث والتجربة قبل الاختيار.

ثم توجهت إليه بالسؤال:

أرجو ألا تكون قد عانيت في الاهتداء إلى عنواننا!

وأردفتْ بلهجة ذات معنى:

إن الطريق إلينا واضح تماماً.. إنه مستقيم وليس فيه أي اعوجاج.

... إن الطريق إليكم يوصل إلى الجنة ونعيمها الدائم.

أحسّ أن اللقاء سيفقد بهجته، حين أصبح الحديث ألغازاً وتلميحاً.

... جئت يا خلف لتهنأ لحظات برؤية امرأة طال شوقك إليها، لا لتدخل قاعة امتحان. اطلب تأجيل الامتحان، لأنك لم (تحضّر) جيداً

سلّم إليها المبلغ، وقام وهو يقول:

اسمحوا لي الآن! لدي عمل كثير. سلامي للأهل!

حرص الحاج خلف دائماً على ألاّ يكون ثقيلاً، تحت أي ظرف. لم يُلحِفْ يوماً ولم يُسرفْ في طلب.

... دعها الآن، ولا بأس في الانتظار ثلاث سنين أخرى.

* * *

التفتت نزيمة إلى بهيجة وسألتها:

هل تسرعتُ؟

– قليلاً.. الحقيقة ليس قليلاً، لقد تسرعت كثيراً. لم يكمل الرجل شرب قدح الشربت بعد، وتفاجئينه بـ(طريقنا مستقيم). المفروض أن تسمعي منه أولاً، وتعرفي ماذا يريد. قطع كل هذه المسافة ليخرج بهذه النتيجة.. (طريقنا مستقيم)!

– ما رأيك به؟

- يبدو إنساناً فاضلاً.
- ما العمل الآن؟
- انتظري.. انتظري ولا تستعجلي.

... لا أطيق الانتظار.. إني أحبه!

* * *

لم يطاوعه قلبه في لومها، فراح يلتمس لها الأعذار، ثم يعود ليعاتب طيفها عتاباً رقيقاً شفيفاً..

... أما كان يمكن إرجاء الحديث عن استقامة الطريق إلى وقت آخر؟

ولكنها نبّهته على أنه سيكون معرضاً إلى سؤال، أو أسئلة عن طبيعة الطرق، التي يفضل السير فيها، وسيكون مطالباً بالإجابة الدقيقة الواضحة.

... أين أنت يا صالح؟ ما أشدّ ما بي من حاجة إليك!

* * *

سأله الحاج صالح بوجه متجهم:

ماذا تريد؟ أرسلتَ إليّ (ترجو) حضوري!

- مَن قال إني (أرجو) حضورك؟

ثم قام ضاحكاً، واحتضنه وقال، وهو يقبّله:

أنا آمرك بالحضور، وما عليك إلا السمع والطاعة، يا (شايب)!

دفعه الحاج صالح، وهو يغالب ابتسامةً، وقال:

ماذا تريد، قل بسرعة، فإني مستعجل.

- اجلس أولاً، وانسَ موضوع جرح نعيمة. وعهداً إني سأصطحبك معي لنفحص سوياً جرح عطا الله مرهون، حين يجري عملية (البواسير)! هل رضيتَ؟

- لا حاجة لي بذلك، فلقد رأيت ذلك المكان عشرات المرات، حتى مللتُ رؤيته.

- ألا تسأل عن أحوال أخيك الشاب الوسيم العاشق؟

- لم يعدْ أخي، منذ أخذ (يشتغل) لوحده.

- وهل يحلو (الشغل) إلا معك؟!.. أخوك (غركَان)

تهللت أسارير الحاج صالح، واقترب منه بلهفة قائلاً:

(عليك الله)! حدثني.

ولما قصّ عليه الحكاية كلها، قال:

أحسست أن في الأجواء شيئاً، ولكنك أجدت المداراة. وجهك وعيناك وارتعاشة يديك، كل ذلك يقول إنك كنتَ تخفي شيئاً. لقد أحسنت الاختيار!

- لعلي لم أختر، لعل القدر هو الذي اختارها أو اختارني.

- في كل الأحوال هو اختيار جيد. ولا تبتئسْ بما سمعت منها! فلا يمكن أن تقول إلا مثل ذلك، سواء كانت صادقة، أو كانت تداري.

- ما العمل الآن؟

- انتظر.. ربما هي أكثر لهفةً منك لمعرفة ما سيحدث.

- سأنتظر، ولكنْ إذا استجدّ شيء فإني سأكون محتاجاً إلى مشورتك. وأعتقد أنك لن تبخل عليّ بالمشورة، لأنك وفيٌّ وصاحب أخلاق رفيعة وتحبني.. تحب أخاك الصغير الوسيم!

- كنتُ سابقاً أتأثر، وأكتفي بمثل هذا القول، أما الآن فلا. لقد تلقيت دروساً كثيرة. أخبرني: ماذا سأجني إذا قدمت لك خدماتي الجليلة، التي لا يستطيع أحد سواي أن يقدمها؟

- ألا ترجو ثواب الآخرة؟

- كلا.

- وليس للصداقة حقوق عليك؟

- كان ذلك فيما مضى.. في العهد المباد.

- ماذا تطلب؟

- لن أطلب شيئاً صعباً.. طلباتي بسيطة جداً. المهم أنْ تتعهد بالوفاء والتسديد.

- (سأبصم لك بالعشرة)!

* * *

شغلته حالة الحاج خلف، وتسرب قلقه ومعاناته إلى روحه، فقلقَ هو الآخر وراح يعاني، ليس وفاءً خالصاً لصديق، بل استعداد فطري غريزي لمثل هذه المعاناة، التي يستعذبها ويستحليها ويطرب لها.. قصةُ حبٍ، حكايةٌ أحدُ أطرافها امرأةٌ. أطيبُ نكهةٍ يمكن أنْ يتذوقها في أية حكاية هي أنفاس امرأة.. بصماتها.. لمسة منها.

وشاركه صاحباه هذا الهوى، فأسلموا أنفسهم طيّعةً، سهلة القياد لنسماته، فحلّقوا في أرجائه فراشاتٍ، تتلاعبُ بأجنحتها نسمات الصباح الندية.

مشهد قصير، أو لمحة خاطفة مما يحدث بين رجل وامرأة، أو مما يصدر عن امرأة قد ينال من اهتمامهم ما لا تناله مقررات مؤتمر سياسي خطير الشأن.

أزجوا شطراً كبيراً من إحدى سهراتهم في المطحنة، وهم يناقشون مشهداً من أحد الأفلام، رواه لهم إبراهيم الكواز، تبدو فيه بطلة الفيلم، وهي تمسك بشوكة الطعام، لتضع في فم حبيبها قطعة من المعجنات.

مشاعر تتأرجح بين الحسد والغبطة، وذكريات تتداعى عن أحداث، تقترب في رومانسيتها من ذلك الحدث الجليل، صارت جزءاً من سهرة تلك الليلة.

جلس الحاج عطاالله مرهون بين أصدقائه في إحدى الليالي، وبدا منزعجاً من شدة الحرارة. ولم تخفف (المهفة) من إحساسه بالضيق، فاستعان بأطراف دشداشته، ليحرك نسمات الهواء. وحين راح يمسح جبهته بأذيال الدشداشة انكشف ساقاه، فنهره الحاج خلف قائلاً:

ما قلة الذوق هذه؟! ضع منديلاً في جيبك.

– أعتقد أن عندي منديلاً، ولكن لا أدري في أي جيبٍ وضعته.

ونهض واعتدل في وقفته، وراح يفتش في جيوب الدشداشة بحركات مصطنعة، ثم قال:

لقد وجدته.

أخرج المنديل، وكان منديلاً نسائياً مطرزاً، فعلتْ صيحات الإعجاب والتعليقات المرحة.

وخصّصتْ تلك السهرة للحديث عن المنديل وصاحبته، بعد أن تبرَّك الحاضرون جميعاً بملامسته وتقبيله.

* * *

عقد الحاج صالح العزم على مساعدة صديقه بكل السبل المتاحة، وراح يرسم الخطط ويضع الاحتمالات في ضوء المتيسر من المعلومات.

* * *

قدّم حميد شرار، عامل المطحنة عَيِّنةً من الحنطة التي تسلموها ذلك اليوم إلى الحاج خلف، فوضعها على باطن كفه الأيمن وراح يتفحصها باهتمام. رنّ جرس الهاتف، فرفع السماعة بجهد دون أن يحول نظره عن حفنة الحبوب. تقلصت عضلات وجهه فجأة، ثم انبسطت وتهللت أساريره. أعاد حفنة الحنطة إلى حميد، وأشار إليه بيده يأمره بالابتعاد.

- حاج خلف؟

- عيون الحاج خلف!

... عيون خلف وعيون أهل خلف وعشيرته

- كيف الأحوال؟ ظننت أنك نسيتنا.. ما هذا الانقطاع؟

اعتدل في جلسته مبتسماً، وقرّب جهاز الهاتف منه.

- يمكن أن أنسى اسمي، ولكن لا يمكن أن أنساكم.

- ما هذا الانقطاع إذاً؟

- كثرة الأعمال، فضلاً عن إن موعد استيفاء (الإيجار) لم يحن بعد.

- كثرة الأعمال لا تحول دون السؤال عن الأصدقاء، وأعتقد أن ما بيننا أكبر من مسألة استيفاء (الإيجار). أليس كذلك؟

- بلى.. كذلك وألف كذلك.

... (شلون مو كذلك.. عمري انتي!)

- لقد أحببنا أن نسمع صوتكَ.

- يبدو أن الله سبحانه قد استجاب لأول أدعيتي، فعسى أن يستجيب للباقي منها!

- كيف؟

- أول أدعيتي وأبسطها أن أسمع صوتك.

- لا أعرف عن الأدعية الأخرى شيئاً، لذا لا أستطيع أن أشاركك الدعاء في أن يستجيب الله سبحانه لها.

- إنها مثل الطريق المؤدية إليكم، (مستقيمة وليس فيها اعوجاج).

- لقد صدق ظني. أزعجتك تلك الملاحظة. لم أقصد الإساءة والله!

- لم تزعجني، ولكنها أخافتني، مثلما أخافني كتاب

التسريح من الخدمة العسكرية. لقد أحسست حينها أني مقبل على عالم غامض مجهول.. مسؤولية كبيرة.

- وهل مثلك يخاف من المسؤولية؟ أنت اليوم شيء آخر غير ما كنت عليه عند التسريح.

- أسأل الله تعالى أن أكون عند حسن الظن!

... آه لو تعرفين ما أنا عليه اليوم! كنت حراً طليقاً مثل عصفور، ولو قُدِّرَ لي أن أُقيّدَ حينها لو ضعت القيودُ في يديّ، أما اليوم فإنها في اليدين والرِّجْلَيَن وحول العنق.

- متى سنراك؟

- قريباً إن شاء الله!

- متى؟

- غداً صباحاً.. ممكن؟

- ممكن.. ولا تتأخر!

* * *

قال لجندح:

اذهب إلى فاضل الحلاق وأخبره أني أريد أن أراه، بعد أن يفرغ من عمله، وليحضر معه (العدة).

ذهب جندح متباطئاً، فناداه جده مبتسماً، وأخرج من جيبه مائة فلس وقدمها إليه، فسأله بحياء مصطنع: ما هذه؟

- ألا تعرف ما هذه؟ إنها مائة فلس.. خذها!

- لا.. والله جدّي عندي (مصرف)!
- ما هذه العفّة المفاجئة؟ خذها قبل أن أغيرّ رأيي.

تلقّفها وراح يجري.

* * *

فتحت نزيمة الباب، ونظرت في عينيه مباشرة، وهي تبتسم ابتسامة عذبة، وظلت تنظر إليه دون أن تتكلم، ثم قالت:

أهلاً وسهلاً!

ناولها كيسين مليئين بالفاكهة، فتناولتهما شاكرة، ودَعَتْه إلى الداخل. جلس محاولاً أنْ يلتقط أنفاسه.

... هنيئاً لك يا عبود! تقفز متى تشاء دون رقيب!

الجو أكثر انشراحاً وألفة مما كان عليه في الزيارة السابقة. أحس بارتياح وبهجة. في سمائه غيوم قلق، ولكنها ليست داكنة ولا كثيفة.. نُتفٌ هنا وهناك. ومَنْ ذا الذي تخلو سماؤه من مثل هذه النتف، وهو يقف بحضرة هذه الرقة والأبهة؟

... آه.. لو يتهيأ لي أن أقفز قفزتين من قفزاتك يا عبود! لأزحت عن صدري وكاهلي هذا الركام من الحياء الذي يقيد حركاتي ويلجم لساني!

استعدت نزيمة للقاء، مثلما استعد هو، ولكن شتان ما بين استعدادها واستعداده!

... من أين لكِ بمثل هذه الألوان وهذا التناسق؟

وانطلقت نظراته إلى حيث شاء لها الهوى.. إلى قدميها، ليبهره

لون طلاء أضافرهما الذي تناسق ولون فستانها.

... تعالي يا أم حاتم وانظري، ثم أخبريني أحقاً أنكما من جنس واحد؟!

ظلت نزيمة واقفة، وهي ترحب به بابتسامتها العذبة.

أفلتت من يدها في لحظةٍ خبرة سنوات طويلة، فعادت قلباً حديث عهد بوميض البرق وعصف الرياح. ولقد حاولتْ أن تتشبث بشيء من تجارب الماضي، ولكنها عادت فاستطابت أن تسلم نفسها لجزر البحر بهدوء ناعس، وهي مغمضة العينين.

وأحسّ بفرحها فامتلأ بهجة، وشعر أن شيئاً من تلك الطاقة الأزلية الغامضة اللاذعة بدأ يدبّ في عروقه، تاركاً وراءه أثراً مثل شهاب يخرّ من السماء.

اعتاد أن يقف بحضرة الجمال وقفة قروي ساذج طيب القلب عند مرقد مقدس.. قروي نقيّ السريرة، لا يروي ظمأ روحه إلا تقبيل باب المرقد وشبابيكه ولثم ترابه.

حين يرنو إلى الجمال يحس أن روح حيوان من حيوانات البرية تتقمصه، وأن صوت ذلك الحيوان يتردد في صدره، ويملأ أحياناً تجويف حنجرته، حتى ليكاد في أحيان قليلة أن يصل إلى أسماع المحيطين به.

ولم يخجل من الاعتراف لصفوة أصدقائه بأنه حين يرى نعيمة الدلالة يحس أن في صدره رجع نهيق.

وقف الوعل الذي تقمصته روحه على ربوة، يرنو إلى ظبيته الفاتنة، وهي تلتقط أطراف فروع (الشيح) اليانعة. ومن حين إلى

آخر يحول ناظريه عنها ، ليرصد الأفق خوف ذئاب الفلاة.

ولم يطق الوعل صبراً فانحدر شامخاً محاطاً بالهيبة ، واقترب من الظبية ، وجعل رأسه قرب رأسها ، ولكنه لم يأكل شيئاً ، فتوقفت عن الأكل ، ورفعت رأسها وراحت تتهادى ، فسار إلى جوارها بخيلاء ، غير مبال بذئاب الفلاة.

دخلت بهيجة حاملة صينية فيها أقداح (شربت) ، وهي ترحب به مبتسمة ابتسامة ، جعلته يتذكر الحاج صالح وخليل قنديل.

انسحبت بهيجة مسرعة ، فعاد الوعل والظبية إلى النجوى.

* * *

قال للحاج صالح :

بعد كل ما سمعته ، قل لي ما العمل؟

- قلْ لي أنت ماذا تريد؟
- لا تجعلني أندم ، إذ أخبرتك بكل شيء.
- أعني ما الذي تريده منها غير الحب. واضح جداً أنها ترغب في الزواج ، فهل أنت مستعد لهذا؟ هل باستطاعتك أن تتزوجها؟
- ماذا ترى أنت؟
- هل هذا سؤال؟ من الذي يحب ، أنا أو أنت؟
- جد لي حلاً ، فما عدت أستطيع التفكير!
- هل تقوى على تركها؟
- سأصاب بالجنون.
- أنت مصاب به الآن. هل لمست يدها ، أو حدث شيء آخر؟

- لا.
- لماذا؟
- حاولت، ولكنها سحبت يدها وحذرتني بلطف.
- هل كانت جادة؟
- جداً.
- عن ماذا تحدثتما؟
- عن أهلها ونشأتها وزواجها، ثم عن حاجة المرأة إلى الرجل.
- وعن ماذا تحدثتَ أنت؟
- عن أشياء مماثلة.
- هل هي محافظة؟
- ألم ترَ طريقة لبسها؟
- لا أتذكر منها شيئاً.
- لا تبدو محافظة، قد تكون متحررة قليلاً، ولكنها رصينة وهادئة.
- هل تعتقد أنها سترضى بالزواج العرفي؟
- لا.
- ما الذي يمنعك من الزواج، كما يتزوج (الأوادم)؟
- أشياء كثيرة.
- مثلاً؟

سحب الحاج خلف (نَفَساً) قوياً من النارجيلة، فتصاعدت فقاعات الماء في زجاجتها، مصحوبة بنغمات تغذي في النفوس بذور الشجن.

- لا أريد أن يدفع أحد من عائلتي ثمن سعادتي.
- كيف سيدفعون هذا؟
- ألن يكون لها حصة من الميراث بعد وفاتي؟
- أليس هذا حقها شرعاً؟ ألا تستحقه؟
- بلى.. تستحقه وزيادة! ولكن أليس من حق جلال عليّ أن أترك له شيئاً لعلاج عينه، ومن حق أمه أن أوفر لها شيئاً لبناء دار لها ولأولادها؟ أأتركهم تحت رحمة حاتم الظالم؟
- لا تنسَ أن لك، أنتَ أيضاً نصيباً شرعياً في ميراثها إذا ماتت، وهي على ذمتك. ولكن أخبرني ما لنا ولهذا الحديث المقيت عن الموت، ونحن ما نزال في أول الطريق؟ إذا عقدت العزم على الزواج فعلاً فإنا يمكن أن نجد الحل، حتى لو اضطررنا إلى استشارة محامٍ.
- (دخيلك)! جد لي حلاً، وسأكون طوع يديك!
- تقول إن حاتماً ظالم، في حين إنك لا تقل ظلماً عنه.
- يمكن أن تجد فيّ (كل عيوب الشرع) إلا الظلم والكذب!
- لماذا لم تذكرني عند ابنة خالتها، إذا كنت ترى فيّ الصديق الذي يمكن أن تأتمنه على سرك؟
- في المرة الثانية التي رأيتها تذكرتك وتذكرت خليل قنديل. إنها (فص ألماز).
- حظوظ! تتذكر خليل قنديل الذي (يلعب بالألماز)، وتساويه بالعبد الفقير الذي يتحسر على ابتسامة من نعيمة الدلالة. وإذا حدث وابتسمتْ فإنكم واقفون لي بالمرصاد.

- جدْ لي حلاً، وستراها وتكلمها!
- وعد الحر دين.
- وعد حر!
- أخشى أن يكون وعد (كُرْ)!

* * *

على الرغم من السعادة التي ملأت جوانحه، بقيت سحبٌ من القلق والرهبة تكدر صفو سمائه. رهبة ناجمة عن خطورة قراره الذي عقد العزم على تنفيذه. وكان طيفها يلمّ به ليقتاده، وهو مستسلم في فضاءات رحبة، حراً طليقاً ضاحكاً، مثل صبي يركض على ضفاف شاطئ رملي.

توارت نعيمة وانحسر أبو فرج وتضاءل حاتم وخفّتْ وطأة العمر، وطال وقوفه أمام المرآة، وازداد تألقاً.

واقترن استبشاره بتسلم (إيجار) بيت نزيمة بفرحه بإعلان الحاج صالح عن نجاحه في إيجاد حل لمخاوفه.

* * *

- هل حقاً ما تقول؟
- أنت جاحد إذ تسأل مثل هذا السؤال، هل قلت لك يوماً غير الحق؟ ولكنك قصير النظر، فلا تراني على حقيقتي ولا تقدّرني حق قدري.
- أقول دائماً إنك وفي ونبيل وشهم!

- ولهذا حرمتني من النظر إلى جرح نعيمة!

- لقد وعدتك بما هو أحسن. ما هو الحل؟

- إنه مكتوب في هذه الورقة. ولقد بذلت جهوداً جبارة في الحصول عليه.

- إن الله لا يضيع أجر المحسنين. ادرسه جيداً، وستأتي معي.. سأعطف عليك وأتنازل وآخذك معي، بوصفك ابن عمي وولي أمري، لأني لم أبلغ سن الرشد بعد. اعرضْ عليها الحل السعيد.. يا حبيبي يا صالح الورد! جعل الله إبراهيم الكواز وعطا الله مرهون فداءً لعينيك الجميلتين!

* * *

عصر يوم من أواخر أيلول وقفت نزيمة وبهيجة عند جانب من موقف الباصات في ساحة الباب المعظم. قليلاً وتوقفت بالقرب منهما سيارة (دوج ٥٦) حمراء اللون، يقودها الحاج خلف، وإلى جواره الحاج صالح.

صعدت فيها نزيمة مسرعة، ثم تبعتها بهيجة بتأنٍ، وهي تلملم أطراف عباءتها اللمّاعة، لكي لا تتجعد عند جلوسها. تبادلوا التحيات، ثم قال الحاج خلف:

أقدم لكما الحاج صالح.. (أبو ضياء).. صديق عمري والأقرب إليَّ حتى من إخوتي. إنه شيخ عشيرة معروفة، ولكنه يسكن في محلتنا حالياً، لأنه موظف حكومي.

- أهلاً وسهلاً.. تشرفنا!

حياهما بانحناءة من رأسه، قائلاً دون أن يلتفت:

أهلاً وسهلاً!

التفت أبو حاتم نصف التفاتة إلى نزيمة قائلاً:

مشتاقون!

ثم إلى بهيجة:

تشرفنا بحضورك يا ست بهيجة.. إنه يعني لنا الكثير. ذكرتكم بخير كثير عند أبي ضياء، فأحبّ أنْ يشاركنا اللقاء. حضوركم وحضوره يسعداني.

قالت بهيجة بمرح:

أدام الله عليكم السعادة! ومتَّعنا بشيء منها، سواء كنا أصدقاء أو أقارب!

قال أبو ضياء دون أن يلتفت:

أقرب الأقارب هو من نراه صديقاً. كم من قريب لا نراه إلا في المناسبات، وكم من صديق تكون رؤيته هي المناسبة!

... أهكذا يتكلم الشيوخ؟ ينطقون بالحكمة ولا يلتفتون! التفتْ لأرى أشياء غير هذا الزي الأبيض والعباءة الحمراء.. التفتْ لأرى وجهك جيداً.

رأيت آخرين يرتدون مثل هذا الزي، ولكنك لست مثلهم، كانوا لا يحوّلون أنظارهم عني. فلماذا لا تلتفتْ؟

توقفت السيارة أمام فندق (شتورا)، فترجَّل أبو حاتم وأبو ضياء، الذي اعتدل في وقفته، ثم سوّى عباءته الحمراء المذهبة بـ(الكلبدون) جيداً فوق كتفيه، وفتح باب السيارة الخلفي قائلاً لبهيجة، وهو ينظر في عينيها مباشرة:

تفضلي!

نزلتْ، وفسحتْ المجال لنزيمة لتنزل، وراحتا تسوّيان عباءتيهما، وكانت ما تزال تنظر إليه.

بهرتها وسامته.. طولٌ فارع ورشاقة أخاذة. وجه مستطيل حنطي اللون، يتجمّع سحره في عينين عسليتين واسعتين، تبدوان مثل نافذتين، تطلان على الجنة، وأنف أقنى، وفم خلق لينفث السحر مذاقاً وقولاً.

... ماذا ارتديت في يوم زفافك، إذا كان ما ترتديه اليوم، وأنت بهذا العمر، بمثل هذه الأناقة؟

لقد أجاد اختيار ملابسه، (صايه) وسترة بيضاوان وحذاء جلدي أنيق أبيض اللون، وعباءة حمراء مذهّبة.

تقدمهم إلى المطعم الملحق بالفندق، يتبعه الحاج خلف، وهو يسير إلى جانب السيدتين.

رمقهم عدد من رواد المطعم باهتمام، (شيخان) وسيدتان جميلتان، جمالهما من النوع الذي يليق برفقة الشيوخ.

اختار مائدة في إحدى زوايا المطعم. سحب كرسياً ودعا بهيجة إلى الجلوس، فشكرته باسمة، وفعل الحاج خلف مثل صنعه، فسحب كرسياً، ودعا نزيمة إلى الجلوس، وهو يقول في سره:

(ملعون الوالدين، صاير صاحب أصول!)

جلس مواجهاً رواد المطعم، وإلى جانبه أبو حاتم الذي بدا ساكناً مأخوذاً، وهو ينظر إلى نزيمة.

أخرج من جيب سترته علبة سجائر أجنبية وولاعة أنيقة ومسبحة (كهرب)، وضعها أمامه على المنضدة، وأطرق قليلاً، ثم نهض بهدوء، وبرشاقة نزع عباءته عن كتفيه وطواها طيّات عدة، ووضعها على مسند كرسي إلى جواره، فبدا حين نزع العباءة أكثر رشاقة.

التفت الى أبي حاتم قائلاً:

مالَك لا تنزع العباءة؟ تمتَّعْ بهذا الجو المنعش!

وحين نهض أبو حاتم ليطوي عباءته سألته بهيجة باسمة:

هل هذه الدعوة موجهة لأبي حاتم وحده أو لنا جميعاً؟ نحن نريد أن ننتعش أيضاً.

نظرتّ إليها نزيمة بعتاب، فاستثمر الفرصة التي جاءت مواتية، فقال ضاحكاً:

أتمنى أن تفعلوا وأخشى أن تفعلوا! أحب أن تنتعشوا، وأخشى إذا نزعتم (العبي) أن تحدث معارك، ونحن كما ترون لا نصلح للمعارك، قد نصلح للحب، ولكننا حتماً لا نصلح للمعارك.

قال أبو حاتم:

قد تكون صلاحيتك للحب مشكوكاً فيها، أما أنا فإن صلاحيتي له غير مشكوك فيها أبداً.

ضحكوا جميعاً. وراح الحاج صالح يداعب خرزات المسبحة ويقلّب الولاعة بين أصابعه، وبهيجة لا تحوّل نظراتها عنه.

... تشكّ في صلاحيته للحب يا حاج خلف؟! هل مثله يُشَكُّ في صلاحيته؟.. إنه صالح.. صالح جداً، ولهذا أسماه أهله (صالح) ليت قلبي يصير (خرزة) في مسبحته، أو يحلّ محل الولاعة، وهي بين أصابعه!

ظل الحاج خلف صامتاً. ولما طال صمته خشي أبو ضياء أن تسأم السيدتان، فبادر قائلاً:

كنا صغاراً.. مجموعة من الصبية الصغار، أبو حاتم وأنا وإخوته وإخوتي وأقاربنا.. مجموعة كبيرة مثل قطيع من صغار المعزى، لا نكف عن اللهو والمرح، وكان جده رجلاً مباركاً ذا فراسة، خصّني وإياه بعناية. وأتذكر جيداً أنه قال لنا: (أنتما

محظوظان). ولقد صَدَقَتْ رؤياه في أبي حاتم، فها هو ذا الحظ السعيد يفتح له الأبواب، ليندفع في طريق السعادة مهرولاً، أما أنا فما أزال انتظر دوري.

قالت بهيجة ضاحكةً:

مثل صغار المعزى؟ ما أجمل هذا الوصف!

كانت لدينا عنز (شامية) حين كنتُ صغيرة، وكنتُ أحبُّ صغارها وألعب معهم.

وراح الحاج صالح ينظر إليها مبتسماً، وهي تصف برقّة بالغة صغار العنز (الشامية) وقفزاتها اللاهية.

... ليتك تحبين هذا (التيس) الشامي الجالس أمامك وتلعبين معه! لو لعبتِ معه لرأيت فنوناً من اللعب لن تنسيها.

قال:

هكذا نحن أبناء الأرياف، ينسابُ ما في قلوبنا إلى ألسنتنا دون تفكير، فتفلت منا كلمات، ربما لا يرضاها الآخرون. فأسرعت لتقول:

أعتذر! والله لم أقصد الإساءة! إنها كلمات حلوة ووصف لطيف!

فقال مطمئناً إياها:

لم أشعر بأية إساءة، حاشاك من الإساءة! أنتِ اللطف والذوق كله.

لنا صديق في المحلة اسمه إبراهيم الكواز، وهو من صفوة الأصدقاء، لو يسمع حديثي هذا لقال مشيراً إليّ وإلى أبي حاتم:

لقد كبر أحد (الجديين) وصار (تيساً)، أما الآخر فإنه ينتظر الترقية.

ولن نزعل، لأن (الكُلفة) بين الأصدقاء مرفوعة.

... فارفعي (الكلفة)... ارفعيها وألقي بها وبالعباءة بعيداً، ودعيني أتطلع إلى بديع صنع الخالق.

تحبين اللعب مع صغار العنز الشامية؟ تعالي والعبي معنا، فنحن صغار العنز الشامية! أنا وإبراهيم الكواز وعطا الله مرهون.. اركبي على ظهري كل يوم من الصباح الى المساء.. دعي الحاج خلف يعود بنزيمة الى البيت واركبي على ظهري، وسأطوف بكِ في بغداد كلها.

- ما أجمل صحبة الأصدقاء الأوفياء! هنيئاً للإنسان الذي يجد صديقاً يفتح له قلبه، ويبوح له بسره ويشاركه أفراحه وأحزانه!

... لقد فتحتُ لك قلبي منذ أن رأيتك، فمتى ستدخل؟ أنت محظوظ أيضاً، لقد جاء حظك إليك راكضاً، فمدّ يديك واحتضنه!

ماذا تريد أكثر من هذا؟ ماذا أقول أكثر من هذا؟

وراحت تنظر في عينيه، وهو ما يزال يقلّب الولاعة بين أصابعه، ويداعب خرزات المسبحة بأصابع يده الأخرى.

شعر أن ساقها التصقت بساقه، وهما تحت المنضدة، فأفلتت الولاعة من بين أصابعه، وأطبقت كفه بحركة خاطفة على المسبحة، وارتعش كتفاه رعشة، صاحبها إحساس ببرودة شديدة، انحدر من أعلى عموده الفقري، مثل انهيار جليدي من جبل شاهق.

رعشة تباغته، كلما فوجىء بلقاء الجمال.

قالت نزيمة:

لا يبدو على الحاج خلف ما يشير إلى وقوفه على أبواب حظه السعيد.. إنه ما يزال صامتاً واجماً.

قالت بهيجة، ووجهها يشع ألقاً وبهجة:

لعل الفرحة قد عقدت لسانه. أحياناً تهرب منا الكلمات حين نفرح.

ثم أكملت، وهي تنظر إلى الحاج صالح بدلال:

المفروض أن يتكلم الإنسان ليعرف الآخر طريقه.

قال الحاج خلف:

إن فرحتي لا توصف، وأنا أعرف جيداً ما الذي أريد أن أقول، ولكني الآن مثل مريض موشك على دخول صالة العمليات، إنه يعرف أن العملية الجراحية ستضع حداً لآلامه، ولكنه يخشى أن تنهي حياته.

انتبه الجميع إليه، وأطرقت نزيمة قليلاً، ثم قالت:

عمري فداك! قد يستغرب أخي أبو ضياء كلماتي، فيظن بي الظنون لأنه لا يعرفني، ولكنّ بهيجة تعرف جيداً ما الذي تعنيه لي. لم أفكر يوماً في أن أسبب لك أي إحراج، وإذا كنت تشعر أني أثقل عليك فليكن لقاؤنا هذا أول لقاء وآخر لقاء، وستبقى ذكراك في نفسي مثلما هي دائماً.

أسرع الحاج صالح ليتدارك الموقف، فقال:

ما هذا الذي أسمع؟! بالله عليكم ارفقوا بنا!.. تذكّروا أين

نحن الآن.. دعونا من هذه الأحاديث الحزينة.

ثم توجه بالحديث إلى أبي حاتم:

أهذا هو كل ما قدرت عليه؟ ألم تسمعْ ما قالته الأخت أم سعاد؟ لو كنتُ مكانكَ (لدفعت حساب) الجالسين في المطعم الآن جميعاً، ولدعوتُ من في الشارع إلى العشاء.. (وعلى حسابي)!

وما تزال بهيجة تنظر إليه باسمةً.

... أعجبك ما قالته نزيمة لأبي حاتم؟.. عمري فداك!

... ما رأيك إذا غنيت لكَ (أنت عمري)؟ ماذا ستقول إذا رقصتُ لك على أنغامها؟

أحسّ الحاج صالح أن صديقه لن يفلح في عرض الفكرة، ولن يسلم من الخسارة. وإن أية خسارة في التعامل مع أمثال نزيمة وبهيجة ستكون ممضّة موجعة، فتصدى للموقف وتكفّل بعرض الفكرة المقترحة، وقال:

خاض أبو حاتم صراعاً عنيفاً مع ذاته وظروفه وظنون الآخرين، وأحسبه انتصر. لنتركه يلتقط أنفاسه، وإذا أذِنَ لي، وسمحتما فسأتولى أنا عرض القضية.

وراح يتحدث والجميع صاغون إليه. ولقد أجاد الحديثَ وأحسن تصوير مروءة أبي حاتم، الذي راحت نزيمة بعد سماعِها الحديث تمعن فيه النظر باحثة عن فسحة في قلبه الكبير، لتلقي فيها متاعاً، أثقلها حمله في سنيّها الأخيرة، منذ تصدت لحمل مسؤولية عائلتها.

طرب أبو حاتم واهتز فرحاً، وهو يستمع إليه.

... أهذا أنت حقاً يا صالح؟! أهذا المتحدث اللبق هو أنت؟! منذ متى أخذت تجيد الحديث، وبهذه الرصانة؟ كنت أحسبك لا تغرّد إلا عند العبث. كيف سأرد ذلك الجميل؟ فداك إبراهيم الكواز وعطا الله مرهون وأبو فرج! ولكن لن أبوح لك بما في نفسي، لأنك لو اطلعت عليه لأسرفت في الدلال والتباهي والغرور، ولن تقف طلباتك عند حد.

وازدادتْ بهيجة إعجاباً به.

... ترمقني نزيمة بعتاب حين أحدثك بمودّة، ألست معذورة؟ شكلك أخاذ وحديثك ساحر. لو كنا جالسين لوحدنا لأبعدتُ هذه المنضدة واقتربتُ منك حتى تلامس ركبتاي ركبتيك، وقد أتوغل أكثر! وسأتولى بدلاً منك ثنيَ أطراف (الغترة) فوق جبينك. آه لو تدري ما تفعله بأعصابي أصابعك، وهي تمتد بنعومة لتسوّي ثنيات (الغترة)، أصابعك هذه التي تشبه (أصابع العروس)!.. هذه الأصابع الرقيقة الطويلة الناعمة، التي أحس أنها تدغدغ قلبي.. تقلّبه مثلما تقلّب الولاعة، وتداعبه مثلما تداعب خرزات المسبحة. آه لو يُتاح لي أن أمسك بها وأمعن فيها النظر، ثم أدنيها من فمي وأعضها بقوة، وأنا أنظر في عينيك، وحين أرى أني آلمتك أكفّ عن عضها، وأمسحها بأطراف ثوبي وأقبلها، ثم أعود لأعضها من جديد.

ما أجملك وأنت تتحدث! في عينيك بريق يعشي الأبصار وعلى فمك ابتسامة تخلب الألباب، حتى لا أدري من أين أبدأ، بأيهما أبدأ، أيَّهما أقبّل أولاً، أشفتيك أم عينيك!

ومثلَ الغيوم الخفيفة التي تزجيها رياح آذار تراجعتْ

مخاوف أبي حاتم، فتهلّلت أساريره فاستمتع بقربه من نزيمة، وعاش لحظات اللقاء لحظة لحظة. وقابلته هي بالمثل، فحلّقت روحاهما في أعلى مراقي السماء، وتعانقتا، جاهلتين ما يجري تحت المنضدة من عناق.

وفي طريق العودة، وقبل أن يصلوا إلى الوزيرية أحسّ الحاج صالح أن يداً تمسك بزنده الأيمن برفق وحنان، وتنزلق بتؤدة الى أسفل، فعاودته تلك الارتعاشة في كتفيه.

دست بهيجة يدها في جيب سترته الأيمن، ثم أخرجتها. وحين لاحظ انشغال الحاج خلف بالنظر الى الطريق مدّ يده إلى جيب سترته، فوجد منديلاً ناعماً.

وفي طريقه إلى البيت، وقف تحت مصباح مضاء في الشارع وأخرج المنديل. كان منديلاً نسائياً من الحرير المطرز، فوّاح العطر، فراح يمسح وجهه به برفق، متنسماً عطره، وهو يبتسم.

* * *

حرص الحاج خلف على ألاّ يعرف أصحابه شيئاً مما ينوي القيام به، وتمنى بصدقٍ ألا يضطر الحاج صالح إلى الطلب من (الملا خليل قنديل) أن يكون الشاهد الثاني على عقد القران. ولم يكن هناك بديل عنه، لأنه والحاج صالح أكثر معارفه حنوّا ورفقاً بالقلوب الملتاعة. وعلى الرغم من هذا ظلت في نفسه بقايا قلق مما سيسمع من تعليقات خليل.

قال خليل للحاج صالح حين طلب منه أن يكون شاهداً:

ألف مبروك.. والحياة السعيدة، وأسأل الله ألا يحتاج لخدمات فاضل الحلاق! أرأيتم ما يصنع الحب؟ كلنا (في الهوا سوا.. الحِجّاج والملالي).

يحسد الناس خليلاً المسكين.. تعالوا وانظروا ماذا فعل الحاج خلف! حظوظ!

- وماذا فعل الحاج خلف؟ ما الذي ناله؟ إنها واحدة فقط، رزقه الله إياها في آخر العمر، بينما يملك الآخرون (درازن)!

- ((ومن شر حاسد إذا حسد))

- عين المحب لا تؤذي، و(جِلْد الملالي حديد).

- لا تصدق كل ما تسمع، إن الحب يجعل جلودهم وقلوبهم أرقّ من ورق الورد.

* * *

وقف أمام القاضي وإلى جواره نزيمة، وخلفه شاهدا العقد الحاج صالح والملا خليل. أخذ يرتجف بينما أطرقتْ هي حياءً.

وحين خرجا من غرفة القاضي أطلقت بهيجة، وكانت تنتظر في الممر زغرودة مرحة عالية، واقتربت من الحاج صالح حتى لاصقته، وخليل ينظر إليهما بإمعان.

فتح الحاج صالح باب السيارة الأمامي، وطلب من خليل الصعود، فتراجع هذا قليلاً، وقال مداعباً:

العفو! اصعد أنت، لأنك أكبر مني سناً.

فقال الحاج صالح، وهو ينظر إليه نظرة ذات معنى:

اصعد (إبن الأوادم)!

ثم فتح باب السيارة الخلفي فصعدت نزيمة فبهيجة، ثم صعد هو.

اتجهت السيارة إلى الوزيرية. نزلت نزيمة وبهيجة ومعهما الحاج خلف، ودخلوا الدار.

بقي أبو ضياء وخليل في السيارة، فالتفت خليل وسأل أبا ضياء:

متى سأشهد على عقد قرانك؟ ألا تريد أن أكون شاهداً؟

- أريد أن أهنأ بهذه (النعمة) مطمئناً، فارحمني ولا تنغص عيشي.. الله (يخليك)!

تحرك خليل في مقعده قليلاً، ومال إلى الحاج صالح وأمسك بيده وحاول أن يقبّلها، وسأله متوسلاً، وهو يضحك:

هلى أمسكتَ بيدها؟ دعني أقبّل هذه اليد الكريمة عسى أن أجد فيها أثراً منها. حدثني بما جرى، وأقسم بالله العظيم أني لن

أخبر أحداً بما سأسمع! (دخيلك أبو ضياء)!

ضحك الحاج صالح، وهو يقول:

ما بك يا خليل! ماذا جرى لك؟!

- هل تتذكر حين كنا نسخر من عاشور النشمي ونقول: إن (نصرة) وضعتْ حول عينيه (الحنكَيري)، مثلما يوضع حول عيني الحصان، فلم يعدْ يرى امرأة غيرها، هكذا فعلتْ (باكزة) بي. أنا الآن مثل (الأطرش بالزفة) لا أدري ماذا يجري حولي.

- أما أخوك فقد مرّ بمرحلة الحصان مروراً سريعاً، وانحدر إلى مرحلة أدنى. كلما رأيت الحمار (الحساوي) في (سكلّة) جاسم ماضي أحسست أنه أخي الشقيق.

- لن يلومك أحد. لقد أخذتُ أحس بمثل هذا الإحساس لمجرد رؤيتها. ومنذ الغد سأدع حمار جاسم ماضي يرتاح وأتولى نقل(الحصو) والطابوق نيابة عنه.

جاء الحاج خلف وصعد إلى السيارة، فقال خليل:

أهلاً بالبطل!.. حامل لواء العشاق إلى الجنة.

- أنا حامل لوائهم؟ ماذا تكون أنت إذاً؟

قال خليل:

مَنْ تتصورون أنه يصلح من أهل المحلة لأن يحمل لواء العشاق يوم الحساب؟

قال الحاج صالح:

إنه أبو فرج، بلا أدنى شك!

فقال خليل:

أعرف منافساً قوياً، قد ينتزع منه الراية.

سألاه:

من هو؟

- إنه حسين حافي.. وما أدراكما ما حسين حافي!

سألهما الحاج خلف:

أين تقترحان أن (نتعشى)؟ أنتما اليوم مدعوان إلى العشاء.

قال أبو ضياء:

في (شتورا)، حيث التقينا بـ(الأحبة) أول مرة.

فقال خليل معاتباً:

كل هذا يجري، ولا تذكران أخاكما الصغير.. اليتيم، الذي (يكسر الخاطر)؟! سامحكما الله!

* * *

اطمأن الحاج خلف بعد الوعود التي سمعها من خليل إلى أنه سيخطو خطوته الحاسمة اللاحقة في ظل قدر كبير من الكتمان.

التكتم والتأني والتحرك بعيداً عن أعين الرقباء مسائل حاسمة في المرحلة الأولى من المشروع.. إنه مشروع مصيري، وليس مشروعاً تجارياً، يتطلب الدعاية والذيوع.

مصدر يثير المخاوف، تم الفراغ من معالجته والاطمئنان إلى مهادنته، وبقي مصدران: إبراهيم الكواز وعطا الله مرهون.

لم يخلُ الحاج خلف من وخزة ضمير، وهو يتكتم على أمره أمامهما، ولكنه كان يلتمس لنفسه الأعذار، فقرر تعويضهما بالقدر الذي يناسب منزلتهما في نفسه، فأهدى لكل واحد منهما قطعة قماش فاخرة وقنينة عطر مستورد. وحين سألاه عن المناسبة قال:

أوصانا الله سبحانه برعاية الأيتام والعطف عليهم.

- وماذا عن الحاج صالح؟ ماذا أهديت إليه؟

- لقد وجد من يتبناه ويشبعه حناناً.

قال للحاج صالح:

لا تخبرهما الآن، سيأتي يوم يعرفان فيه كل شيء.

* * *

تعذّر على إبراهيم الكواز وعطا الله مرهون معرفة أي شيء عن الذي أسبغ حنانه على الحاج صالح، على الرغم من المغريات التي بذلاها بسخاء، ثم التهديد الصارم الذي لوّحا به بالمقاطعة الميؤوس من العدول عنها، واحتمال اتهامه بالخيانة العظمى.

ولقد اضطرتهما صلابته إلى اللجوء إلى أقسى أنواع الانتقام، وهو الوقيعة بينه وبين نعيمة الدلالة والوشاية به عندها، فباحا لها بكل ما سمعا، وزادا فيه أشياء من صنع الخيال، تضمن نسف جسور المودة بينهما كلياً.

* * *

جاء جندح إلى الحاج إبراهيم الكواز ليخبره بأن جده يطلب حضوره والحاج عطا الله إلى المطحنة قبل صلاة الظهر لأمر هام، وحين حضرا وجدا أن الحاج صالح قد سبقهما. سلما عليه ببرود فردّ أجمل ردّ، ولم يبدُ عليه أي إعراض عنهما.

أخبرهما الحاج خلف أن نعيمة الدلالة قد أعدّت (صينية دولمة) غداءً لأبي ضياء، لأدائه خدمة ممتازة لها، وأن أبا ضياء طلب منه دعوتهما، لأنه لن يهنأ له طعام إن لم يشاركاه.

ولم يرفضا الدعوة، ولكنهما أكلا دون شهية، ودون أن يشاركاهما الحديث.

وكانت تلك دعوة مخططاً لها، دفع الحاج صالح تكاليفها كيداً لهما.

* * *

انشغل أبو حاتم وأبو ضياء بالتخطيط لشهر العسل، وراحا يعرضان على خليل قنديل كلّ ما يتوصلان إليه وما يتخذانه من قرارات. ولقد اقترح خليل البصرة مكاناً لقضاء شهر العسل، وأن يتجنب الحاج خلف السفر بالقطار، لأن (المحطة العالمية) مزدحمة بالناس، ولا سيما في يوم الخميس، وهذا ما يتعارض والسرية المطلوبة، لذا فإن السفر إلى البصرة بالسيارات أفضل من السفر بالقطار.

في مرحلة الاستحضارات السابقة لعقد القران كان الحاج صالح يتكلم مستخدماً ضمير الجماعة عند التخطيط، ..(نفعل، نذهب، نأتي)، ولكنه بدأ الآن يستخدم ضمير المخاطب المفرد.. (تفعل، تذهب، تأتي)، مما أثار قلق الحاج خلف ومخاوفه، فسأله:

ما هذا الذي أسمع؟ كأنك ستتركني وحيداً في هذه المرحلة؟! ماذا سأصنع وحدي؟

سأله الحاج صالح بلا أدنى لهفة:

هل ترغب في سفري معك؟

- عجيب! يا أخي سأحتاج إليك حتما! هل هذا سؤال؟
- قلت لعله لا يحتاج إليّ.

ولقد كتم في داخله فرحة عارمة.

رجت نزيمة خالتها أن تسمح لبهيجة بالسفر معها، لأهمية أن توجد بالقرب منها إحدى قريباتها في هذه المناسبة. ولقد وافقت الخالة بعد أن ألحّتْ نزيمة في الرجاء.

* * *

انتاب الحاج صالح ألم مفاجئ في فقراته القطنية، ألزمه الفراش. ولم تأت الأدوية التي تعاطاها بأية نتيجة، فاقترح الحاج خلف عرضه على (سيّد) في الموصل ذائع الصيت، قيل الكثير في خبرته في علاج حالات أكثر صعوبة من حالة أبي ضياء. ولقد أبدى بطيبة خاطر استعداده للسفر معه إلى الموصل. وتم تحديد موعد السفر.

* * *

بطيبتها المعهودة، منقطعة النظير راحت الحاجة (وضحة) زوجة الحاج صالح الصغرى تعد حقيبة سفره دامعة العينين، وهي ترى تقلصات وجهه بسبب ما يعتصره من ألم، بينما أخذت زوجته الأولى (خيرية الفايز) ترمقه بريبة، ثم قالت:

من يرَ أناقتك لن يقول إنك ذاهب لزيارة (سيّد) ولن يصدق أنك مريض!

فقال، وهو يئن:

هذا الشك هو سبب مرضي، وهو الذي سيعجّل بوفاتي.

فقالت الحاجة وضحة:

اسم الله عليك!

* * *

توقفت سيارة أجرة أمام فندق العشار، وترجّل منها رَكْب مهيب، يشع بهاءً.. أبو حاتم وأبو ضياء ونزيمة وبهيجة، وكل منهم

في أبهى مظهر.

شيء في نزيمة أكثر دلالةً من فستانها الأبيض يقول إنها (عروس).. حياؤها، خطواتها المتعثرة، الفرحة المكتومة، ألق العيون.. كل هذا يشير إليها، ويشير الى فارسها الذي يسير إلى جانبها، والذي كان يستعجل الدخول إلى الفندق، ليتوارى من العيون المتطلعة.

جلس في الصالة، وهو يمسح العرق عن وجهه وإلى جواره نزيمة، وهي تلملم أطراف عباءتها، ثم بهيجة التي بدا عليها القلق، على الرغم من انشغالها بالحديث إلى نزيمة.

أشرف الحاج صالح على نقل حقائب السفر إلى صالة الفندق، ثم توجه إلى موظف الاستقبال وحياه بمودّة وكياسة، وناوله نسخة من عقد القران والبطاقات الشخصية، وقال بينما الموظف يدون المعلومات:

هو ابن عمي، وشيخ عشيرتنا. لقد أرهقته واجبات المشيخة، فأراد أن يهنأ بالعيش في آخر العمر.

- عمره طويل إن شاء الله! وألف مبروك!

- الله يبارك في عمرك ويحفظ شبابك! والآن هذه بطاقتي وأرجو أن تحجز لي غرفة باسمي، تشغلها (أهلي)، إذ قد أعود إلى بغداد هذه الليلة، وأرجع غداً، لأن الشيخ كلفني بمهام كثيرة.

منع لطف الحاج صالح و(الإكرامية) السخية الموظف من المطالبة بالأوراق والبيانات اللازمة للحجز (للعوائل).

سلّم أبو ضياء للحاج خلف مفتاح الجناح المخصص له قائلاً:

وهذا مفتاح غرفة السيدة بهيجة. تفضلوا لترتاحوا! وسأذهب إلى السوق لإعداد العشاء، ثم أودعكم لأبيت عند صديق لي في العشار، وسأعود غداً صباحاً، ومعي طعام الفطور.

ولم يبق أي أثر للقلق على وجه بهيجة.

* * *

ثلاث طرقات خفيفة على باب الغرفة، فتحت بهيجة على إثرها الباب، فدخل أبو ضياء مسرعاً.

وقفتْ أمامه وراحت تتأمله بإعجاب وقالت:

اشتقت لك! حرام عليك، ما الذي (عملته بي)! قال، وهو يطوق خاصرتيها بيديه:

شوقي لا يقل!

- كما توقعتَ، اتصل أبو حاتم بي ليطمئن..

فقاطعها قائلاً:

ليطمئن إلى مبيتي عند صديقي، وهو لا يدري بأني سأبيت عند حبيبي...

فقاطعته هي الأخرى قائلة:

حبيبك الذي ستجعله أسعد الناس بمبيتك عنده.

مدت يديها، وأمسكت بيديه، وهما خلف ظهرها وأدنت وجهها من وجهه مداعبة إياه بعبث، فلفحته أنفاسها، فسَرَتْ في جسده قشعريرته، تلك الأليفة المتسلطة.

قادته إلى الأريكة قائلة:

تعال واجلس، فلدي الكثير لأقوله.

- سأتأخر، إن لدي الكثير لأنجزه.

- لن تنجزه من دوني. قلت لك تعال، وكن (حبّابا) واجلس. ألا تريد أن أجلس بالقرب منك؟

- أريده.. أريده جداً.. وأريد أن تكوني قريبة مني جداً جداً، وأريد أشياء أخرى كثيرة.

- لا تستعجلْ رزقك! حين أتأكد من أنك (حبّاب وتسمع الكلام) سأعطيك كل ما تريد، حتى لو كان (حامض حلو)!

أمسكت بيده، وراحت تتفحص أصابعه وأدنتها من فمها، ثم عضتها وعيناها تنظران إليه، والألق يزدحم على رموشهما.

- أيجوز إيذاء الحبيب؟

أبعدتْ يده قليلاً، وقالت وهي ما تزال ممسكة بها:

أنت تقول هذا؟ أتدري ما الذي فعلته بالحبيب؟

وعادت لتعض أصابعه، ثم قالت:

أرجوك سَوِّ ثنيات الغتره كما كنت تفعل في المطعم، حين التقينا أول مرة! منذ تلك اللحظة تمنيت أن أعض أصابعك! من أين لك هذه الحركة؟ لا بل من أين لك هذه الأصابع؟

وقهقهت ضاحكة، وهي تتملص منه بدلال وتقول:

لا تعضني من هنا، سيراها الناس. (صير عاقل)!

ثم قالت:

لقد تمنيت، يومها أن يصير قلبي بين خرزات مسبحتك، لينال نصيبه من المداعبة!

– لم يخطر لي يوماً في بال أني يمكن أن أحس بمثل هذا الإحساس. أنت شيء لم أر مثله إلا في الأفلام!

– أتحب مشاهدة الأفلام؟ أتحب الفن؟

– ليس لي إلا الفن ملاذاً وسلوى، وأنا أنام بين بقرة وأفعى! في الأفلام كثير من الحكايات التي تخفف عناء الحياة. لو كان ما نشاهده في الأفلام حقيقة لصار الممثلون أسعد الناس. إن الجلوس قرب الحبيب من نعيم أهل الجنة.

– ما أجمل حديثك! كل ما فيك جميل. ولكن ما حكاية البقرة والأفعى؟

– لا تشغلي بالك بها. لم أعتَدْ سماع مثل هذا الحديث الذي تطرب له النفس. إن النساء في دنياي كتل من الحجارة، صمّاء باردة، إذا سقطت على الإنسان هشمت عظامه، وإذا سقط عليها ردد الكون صراخه.

– لمن كل هذه الأناقة إذن؟ لمن كل هذا الترف؟

– لزائر أمضيت عمري في انتظار مقدمه. أتدرين كم طربت لقول نزيمة لأبي حاتم: (عمري فداك)؟ لم أسمع مثلها من امرأة أبداً.

– سأثبت لك أن (عمري فداك) وسأقول لك همساً وجهراً: (أنت عمري)، وسأغنيها لك وأرقص لك على أنغامها.

- هكذا أريدك أن تكوني! أسمعيني هذه المسرات يا نعمة السماء في آخر العمر! وهيا بنا لنلعب لعبة (صغار العنز الشامية)! ألست تحبين هذه اللعبة؟ إن بالقرب منك الآن أجمل صغار العنز الشامية.

* * *

سألته، وهي راقدة إلى جواره:

هل أعجبك لعبي؟

- إنه لعب يجعل الصغار يتمنون ألاّ يتوقف، وألا يكبروا.

- لماذا إذن كان زوجي السابق يقول إن غلطته الكبرى هي زواجه مني؟

- إنه الحظ الحلو الذي كنت أجهل أن لي منه نصيباً. لقد صدقتْ نبؤة الشيخ الجليل!

* * *

صباح اليوم التالي نزل الحاج خلف، واتجه إلى صالة الفندق، وخلفه نزيمة وبهيجة، وهما تفيضان بشراً وبهاءً، وأخذتا تتهامسان ضاحكتين، حين رأتا الحاج صالح جالساً في الصالة ينتظر.

وقف ليستقبلهم، تبادل هو والحاج خلف القبلات، وقدّم التهاني لنزيمة، وحيّا بهيجة بأدب ووقار، وقال:

ما أطيب أهل البصرة! أصرّ صديقي على أن يدفع ثمن (القيمر

والعسل). وقد وجّه إليكم الدعوة لزيارته.

- كثّر الله أمثاله! ربما نزوره إذا سمحت الظروف.

- اعتذرتُ نيابةً عنكم. أنت والسيدة نزيمة في حِلّ من أي التزام، أما السيدة بهيجة فهي ضيفة عزيزة، لها علينا حق الإكرام، لذا فأنا في خدمتها، سأتشرف باصطحابها إلى أي مكان ترغب في زيارته في البصرة. ما رأيكم أن نبدأ بزيارة جزيرة السندباد.. إنها مكان جميل.

وهم يتنزهون في الجزيرة، قال أبو ضياء مخاطباً بهيجة:

من الواجب أن نفسح المجال (للعرسان ليأخذوا راحتهم).. ما رأيكم أن نلتقي عند البوابة الخارجية بعد ساعة؟

وحين صارا لوحدهما سألها:

ها! بَشرّي! ما هي أخبارهما؟

- سبحا في العسل.. لقد لعبا لعبة صغار العنز الشامية.

- من هو الفائز؟

- تعادُل.

- أجمل ما في هذه اللعبة أن كل من يشترك فيها يعد فائزاً.

* * *

أمضوا خمسة أيام في البصرة. وحين قرروا العودة إلى بغداد، سأله الحاج خلف:

ألن نشتري هدايا (للجماعة) في بغداد؟

- بلى، ولكنْ لنحذر من شراء هدية شائعة في البصرة، لئلا نثير الشكوك.

حين دخل الحاج صالح الدار، وهو يمشي معتدلاً معافى هبت الحاجة وضحة لاستقباله مهنئة بالسلامة. أما خيرية الفايز فقد حيته ببرود، وفي عينيها نظرة فاحصة.

حدّث عائلته طويلاً عن كفاءة (السيّد) الذي عالجه، وعن قدسية زيارة مرقد النبي يونس عليه السلام، وطيب الأجواء في الموصل.

* * *

قالت له بهيجة، وهما يتناولان الغداء في مطعم (شتورا):

أردتُ أن أسألك سؤالاً، ونحن في البصرة، ولكني خشيتُ أن أزعجك، أو أن تسيء فهمي، فتظن أني أتصنع الحب.

- لن أسيء الظن بكِ يوماً. سلي ما تشائين.

- ألا تظن أن سعادتنا ستكون أكبر، لو كانت علاقتنا شرعية؟

- بلى، ولقد سألت نفسي هذا السؤال.

- هل من مانع؟

- المانع هو خوفي عليكِ وعلى نفسي.

- كيف؟

- قلت لكِ يوماً إن النساء في دنياي حجارة صمّاء، ولم أكمل

الحديث. إني أحمل على كتفي صخرة، إذا سقطتْ على تلك الحجارة الصماء جعلتها مثل حبات الحمص، وهذه الصخرة هي زوجتي الأولى. إنها عقاب السماء الذي لا أجد منه خلاصاً، وعلى الرغم من هذا فأنت على حق!

- كيف تحتملها زوجتك الأخرى؟

- أعتقد أن الله سبحانه سخّر عدداً كبيراً من الملائكة ليدفعوا عنها أذى (خيرية) لطيبتها غير المحدودة. وأقولها ثانية أنت على حق.

- آسفة، لأني أزعجتك! انسَ الموضوع، ولن أعيد عليك هذا السؤال.

- كيف أنساه، وأنت تستحقين أن أجعل أجفان عينيّ لك فراشاً وغطاءً!

قالت ضاحكة:

يكفيني أن تضمني إلى صدرك، وتغطيني بعباءتك، وحينها (إنت ويه ذاتك)!

* * *

أبدى الحاج صالح اهتماماً مفاجئاً بترتيب أثاث البيت وحاجياته، وتعالى صياحه حين رأى أن كيس الطحين المركون قرب باب المطبخ يعرقل المرور، فسحبه من مكانه غاضباً، ولكنه سقط أرضاً، وهو يتلوى من الألم. لقد عاودته آلام الانزلاق.

عاده الأصدقاء، وتحلقوا حوله واجمين مشفقين، ثم راح كل منهم يبدي رأياً في العلاج المقترح.

نال اقتراحان من اقتراحاتهم اهتمامه. الأول هو قيام نعيمة الدلالة بتدليك موضع الألم والمواضع القريبة منه، والآخر هو العودة إلى الموصل، وزيارة (السيّد) الذي عالجه في المرة الأولى. وعند الموازنة بين المقترحين رجحت كفة المقترح الثاني بفارق بسيط.

أبدى الحاج خلف استعداده لمرافقته إلى الموصل، ولكنه رفض شاكراً، لأنه لا يريد تحميله مزيداً من العناء، فضلاً عن إنه (يندلّ الطريق).

غادر إلى الموصل، مصحوباً بدعاء الحاجة وضحة، ونظرات شك قاسية من خيرية الفايز. ولقد عاد بعد أسبوع وهو يمشي معتدلاً معافى، ووجهه يفيض بِشْراً.

زاره الأصدقاء مهنئين بالسلامة، فأشادوا كثيراً ببركات (السيّد) الذي عالجه، وأثنوا على مقترحه الذي اقترحه عليه بزيارة المراقد المقدسة في أنحاء العراق، من شماله إلى جنوبه. ولكن تعذر عليهم معرفة السبب الذي جعله يشترط عليه زيارة المراقد منفرداً.

وزع على أصدقائه وأهل بيته الهدايا التي جاء بها من الموصل، وحين أبدت خيرية الفايز استغرابها من وجود (الروبيان) في الموصل، والمعروف عنه أنه يباع في البصرة، قال بثقة عالية بالنفس وتحدٍ:

لقد وصل (الروبيان) هذه السنة إلى الموصل، وإذا لم يعجبك

فسآكله أنا ووضحة، وستستفيد هي منه الليلة، لأنه مقوٍ جداً! فقامت غاضبة، وهي تقول بصوت خفيض: (سِمْ وزَهَرْ)!

* * *

- كانت أمي رحمها الله، على الرغم من معاناتها من مرضها أول من رصد التغيير في سلوك أبي! إنه تغيير أثار قلقها أكثر مما أثار استغرابها.

- أتدري؟ لقد حال سفرك إلى (يوغسلوفاكيا) دون أن أحدثك بهذا الأمر...

- ألا تزال تتذكر كيف كان يسميها رحمه الله؟! حاولتُ مراراً أن ألفت نظره بطريقة غير مباشرة إلى التسمية الصحيحة، ولكنه أصرّ إصراراً عجيباً على (يوغسلوفاكيا)!

- معذور! لو أحببتُ كما أحبَّ لتوهمتُ حتى باسمي. أما في بيتنا فلقد (تصاعد القلق).. إنه موجود دائماً مقروناً بالشك، ولكنه تصاعد. ولم تفسح زوجة والدي خيرية الفايز مجالاً لأحد لأن ينافسها في رصيدها منه.

- ألاحظ أنك حين تذكرها لا تترحم عليها، والجحود ليس من طبعك. (اذكروا محاسن موتاكم)!

- إنْ كان لهم محاسن. سألتُ نفسي هذا السؤال مراراً. أنا لا أرضى لنفسي إلا الوضوح والصدق، يا أخي لا أستطيع أن أنسى أنها سبب تفكك عائلتنا! والله العظيم لقد أنزلناها أنا ومحمد رحمه الله إلى القبر بأنفسنا، يوم كان ابنها (البطل) خارج العراق.

- لماذا لا توجّه لومك للوالد؟ أليس هو الذي فسح لها المجال؟

- بلى.. فسح لها و(له) المجال. كلما ذكرته امتلأ فمي بالمرارة.

- إنسَهْ، مثلما نسيتُ (حاتم). سمعتُ أنه مريض.

- لا شفاه الله ولا عافاه!

- لا..لا.. لا تكن قاسياً هكذا! إنه أخوك.

- لقد أحببته كما لم يحبّ أخ أخاه، ولكنه كان على قدر من الخسة، لا يوصف.

- لنغيّر الحديث! كان أبي رحمه الله منصفاً! لقد حاول تعويض أمي. لا أشك يوماً في أنه عانى معاناة حادة من تأنيب الضمير.

* * *

اشتكى الحاج خلف أمام أسرته مرات عدة من عطل ماكينة الطحن، وغاب كثيراً عن البيت سعياً وراء الفنيين المختصين بإصلاحها، واضطر مرتين للسفر إلى ديالى في شهر واحد، لإحضار مصلح ماهر معروف، وأم حاتم صامتة واجمة ترمقه بألم، وهو يغادر الدار متأنقاً أناقة لا تناسب الاقتراب من ورش التصليح. ولكن ابنه حاتماً أعلن عن امتعاضه بجرأة:

كثرتْ (عطلات) الماكينة، لا بد أن هناك خللاً كبيراً، ونحن لا ندري.

امتقع وجه الحاج خلف وارتجف غضباً، وهو يقول له:

منذ متى أخذتْ أمور العمل تشغل بالك؟ ما دام مصروفك يأتيك شهرياً بدون نقصان، فلا تزعجني بملاحظاتك.

- هل كفرتُ؟ أليس لي الحق في أن أسأل؟

- كلا، ليس لك أي حق! ولا تكرر ما قلته.

- يبدو أن صحبة الحاج صالح وخليل قنديل أهم من وجودك في البيت.

- اخرس يا قليل الأدب! وإياك أن تنتقد تصرفاتي أو تسيء إلى أصدقائي! لن تدخل داري بعد اليوم يا ناقص!

تناول عصا غليظة، اعتاد أن يضعها قرب مجلسه في المطحنة، ونهض متوجهاً إلى حاتم، الذي أسرع بمغادرة المطحنة مرتبكاً.

تبعه الحاج، وحين أراد أن يدخل الدار التفت فوجد أباه خلفه، فغيّر وجهته نحو السوق مسرعاً. دخل الحاج الدار، ووقف في الساحة الداخلية، والعصا ما تزال في يده، وهو يرتجف غضباً، وراح يبحث عن أي شيء، يصبّ عليه طوفان غضبه. إنّ به رغبة جارفة في أنْ ينهال بالعصا على أي شيء حوله، فيكسره أو يحطمه. وراح يوازن بين المذياع الموضوع على منضدة قرب تخت الجلوس و(حِبّ) الماء و(بستوكتي) المعجون المركونتين في أقصى الساحة.

وتذكّر ظلال الحزن التي ترسم على وجه زوجه، أم حاتم وجوماً وعبوساً، ينبئان أنها تكتم أشياء تنهشها. لقد سئم صمتها، فلتنطق الآن، ولتكشف عن كل ما لديها.

... بهذه العصا سأكسرُ أقفال لسانك. قولي كلّ ما لديك.. لا تُبقى شيئاً. كفى مداراةً وتردداً، لستُ أولَ رجل يتزوج اثنتين!

وناداها بصوت حاد مزمجر:

فهيمه!.. فهيمه!

أسرعت ابنته وهيبة فزعة، وهي تقول:

(ها يابه! خير؟)

وقفت ابنتها نوال خلفها، وهي تمسك بثوب أمها.

سألها، وهو ما يزال يرتجف ويلهث:

أين أمك؟

- في غرفتها.. ماذا حدث؟

- السافل!.. يريد أنْ يتحكم بي ويحاسبني.. فهيمة!

اعتدلت أم حاتم في فراشها، وراحت تسوّي (فوطتها) على رأسها، ثم نهضت ببطء، وأطلّت من باب الغرفة.

- ماذا حدث؟

- ابنك (المدلول يريد يمشيني على هواه) هل اشتكيت له؟

- ممن أشتكي؟

رفع العصا في وجهها، وهو يقول:

مني.. أنا الظالم العابث!

- (تعوّذ الشيطان) واجلس!

وحين رفع العصا ازدادت نوال التصاقاً بأمها، وراحت تبكي.

بكاء نوال وانكسار أم حاتم وعينا وهيبة المليئتان إشفاقاً وحزناً مُدىً تمزق قلبه.

أنزل يده، وهو يستعيذ بالله من الشيطان، ويستغفر.

- لن يدخل هذا السافل الدار ثانية.

ثم قال لوهيبة:

أنا في المطحنة، أرسلي (محمود) ورائي.

أسرعت وهيبة لتعدّ قدحاً من (النومي بصره) لأبيها، وأرسلته إليه بيد محمود.

- أعدّ النارجيلة، ثم اذهب إلى الحاج صالح وبلّغه أنْ ينتظرني عند خليل قنديل. وبلّغ سلمان أن ينتظرني هنا بعد صلاة المغرب.

* * *

استقبلاه باسمين، يفيضان بِشْرَاً وبهاءً.

سأله الحاج صالح بقلق:

ما بك؟ ما هذا الحزن؟ ولماذا لم تحلق وجهك؟

- لا شيء.. تعب بسيط.

قال خليل ضاحكاً:

الاعتدال مطلوب والتخمة مضرّة. لا تغتسل يومياً، فعظامك لم تعد كما كانت.

- عظامي أقوى من عظامك ومن عظام أجدادك.

سأله الحاج صالح:

هل حدث شيء؟

قصّ عليهما ما بدر من حاتم بحقه، ولكنه كتم ذكرَه إياهما. وعلى الرغم من معرفتهما التامة بشطط حاتم حاولا

التخفيف عنه، ملتمسَين الأعذار لحاتم.

- هفوة شباب. سيراجع نفسه ويأتي إليك نادماً.
- أي شباب؟! إنه أب لطفلين.
- لقد كبروا!... بدأ وثاب يتأمل نفسه في المرآة، ويشاركني عطوري.

سأله الحاج صالح:

ماذا عن الأمور الأخرى؟

- الحمد لله!.. إنه منصرف إلى الدراسة. حين أتأمله أخاف عليه من هذه الحياة القاسية. إنه هادئ وطري العود.
- ليحفظه الله لك! ويحفظ أولادنا جميعاً من الشر والأشرار!

قال أبو حاتم للحاج صالح:

أرغب في السفر، يومين أو ثلاثة خارج بغداد (إلك واهس)؟

- مع الحبايب؟
- لا.. لوحدنا. هل في بالك مكان معين؟
- ليس في بالي إلا (الوزيرية) وأهلها.

قال خليل:

حقك.. والله العظيم حقك! ما رأيكما أن تصحباني إلى قريتنا بعد يومين. لقد حان موعد (كَصاص التمر) وستكون سفرة ممتعة، إذا تنازلتما ورضيتما بمصاحبة بائس مسكين مثلي، لأنكما (بَلَيّه حسد) أصبحتما من الباشاوات.

- مَنْ سيبقى في (العلوة) مكانك؟
- حبيب الأمس ومعبود الجماهير وآسر قلوب العذارى أبو علي..

الدوق أبو علي.

سأله الحاج خلف:

ألا يفكر في الزواج؟

- إنه مشغول بأعمال البّر والإحسان. أضربَ عن الزواج، لكي يتفرغ لرعاية الفقَراء والمساكين، فأسس جمعية لهذا الغرض، وجعل أم نجم سكرتيرة له.

- لماذا لا تعرض عليه فكرة الزواج من (كافي) بنت خالة نعيمة الدلالة؟

قال الحاج صالح:

نِعْمَ الاختيار! إنها بنت مستورة وسيكسب بها أجراً، لأنها أرملة وأم لطفلين صغيرين.

- لا حاجة به للأجر، فهو يكسب الثواب يومياً بـ(الشكَابين) عن طريق أم نجم. سأناديه الآن، لتعرضا عليه الفكرة. ما اسم البنت؟

- كافي.

وقف خليل خارج العلوة، وأشار لحسين حافي، فحضر مسرعاً.

- تعال يا قرة العين! لم تصدقني حين قلت لك إنك معبود الجماهير! لو أعرف من أين لك كل هذا الحظ! تعال واسمع الأخبار السارة، ولكن قبل هذا أحتاج إلى أن تعطف عليّ بطريقة، غير التي تعطف بها على (ذاك الرّجَّال)، فتهتم بالعلوة ليومين أو ثلاثة، وأسأل الله أن يحفظ لك سيفَكَ البتَّار وحبيبةَ القلب! لدى أعمامك حديث عائلي.

قال خليل كلّ هذا وحسين لّما يسلم بعد، ولكنه ابتسم، كعادته حين يشرع خليل في مداعبته. جلس على كرسي، قريباً من الحاج صالح، يتملكه الخجل، ووقف خليل أمامه، وعاد إلى مخاطبته مداعباً، وهو يتصنع التوقير:

ماذا يشرب سيدي الدوق.. الفيلد مارشال أبو علي، بطل معركة (المنكوبين)؟

من حقنا أن نفخر بك كما تفخر ألمانيا بالفيلد مارشال رومل، بطل معركة (العلمين).

شكره حسين، وهو يبتسم.

سأله الحاج خلف:

كيف أحوالك أبو علي؟! وما هي أخبار العمل؟

- الحمد لله.. عمي أبو حاتم! بألف خير.
- إذا احتجت إلى أي شيء، لا تتردد في الطلب.
- الله يحفظك.. عمي ويزيدك! عمي أبو وثاب (مكفّي وزايد).
- أنت عزيز علينا. أنت واحد من أبنائنا، ونحن نريد لك الخير.

لدينا فكرة أنا وعمامك أبو ضياء وأبو وثاب. نعيمة الدلالة لها بنت خالة تناسبك. اسأل عنها ولا تخبر أحداً بالأمر، وإذا اقتنعت أخبرنا. عسى الله أن يوفقك ويتمم بخير! ستكون زوجة صالحة. والزواج ستر للمرأة والرجل.

قال خليل:

اسمها (كافي)، وهي جميلة و(مكمّلة) من كل شيء، ولكن يقال إنها ثرثارة.. تتكلم كثيراً، وأنا واثق أنها حين تصبح في

عصمتك وترفل في نعيمك لن تقول إلا كلمتين.. (كافي ذبحتني)!

قال الحاج خلف مخاطباً خليل:

ادعُ إبراهيم الكواز وعطا الله مرهون للسفر معنا.

وقال الحاج صالح:

وإذا أردت أن تضمن حضورهما، فقل لهما إن نعيمة الدلالة سترافقنا.

فقال خليل على الفور:

إذا جاءت نعيمة، فسأتهرب منكم جميعاً.

* * *

- كيف كانت حالته حين التقيتَه تلك الليلة؟

- كان هادئاً، ولكنّ الحزن والمرارة غلبا عليه. رأيت في عينيه حزناً شديداً. ولقد عرفتُ تلك الليلة عن أبي أشياء لم أعرفها من قبل.. أشياء رائعة. لقد انسحب الأبُ عن مسرح الحدث بكبرياء وجلال، ليحلّ محله الصديق الأنيس الرفيق.

- ما هذا الذي أسمع؟! ما أجمل العبارة الأخيرة! من أين جئتَ بها؟ إنها شِعْر.

- إنها الحقيقة. لقد سحرني أبي تلك الليلة لطالما بكيتُ بعد وفاته، وأنا أتذكر حديثه.

* * *

جلس الحاج خلف على التخت الخشبي، وأمامه النارجيلة، وإلى جواره محمود وجلال، الذي كان على غير عادته، واجماً ساكناً.

وحين جاء سلمان فسحا له المجال، ثم قاما ليغادرا ، فأعطى الحاج لمحمود ربع دينار، وقال:

أعط (جلال) مائة فلس.

- الله بالخير!

رد سلمان بحياء:

الله بالخير!

- سلمان! سأتحدث سريعاً عن أمر هام، قبل أن يأتي أحد من الأصدقاء. ما سأقوله لا أريد أن يطّلع عليه أحد إلا الله سبحانه، هل تعدني بهذا؟

- هذا وعد، والله يشهد!

- أرى فيك أشياء، تجعلني مطمئناً، وأنا أتحدث. وهذه الأشياء هي المروءة والنبل. سعادتي كبيرة، وأنا أرى ما أنت عليه من طيبة، لذا سأخبرك بشيئين، أحدهما فعلته والآخر سأفعله، وسأقول لك أسباب فعلي إياهما، لكي تدافع عني بعد وفاتي، أو في الأقل لكي لا تعتب عليّ، وأنت تتذكرني.

- ما هذا الذي تقوله يا أبي؟! عمرك طويل إن شاء الله!

- الأعمار بيد الله. اليوم يئست من حاتم يأساً لا أمل بعده. يؤلمني أن أرى ولدي الأكبر على هذا القدر من الخسة والطمع، ولكنْ هذه هي مشيئة الله، ولا اعتراض عليها. سيمزق حاتم بعد وفاتي شمل العائلة بأطماعه، فلا تفسح له المجال، لا تصطدم به، ولكنْ اجعله يشعر أنّ هناك مَن يمكن أن يقاوم أطماعه.

- أنت أبي وطلباتك أوامر، ولكنّ حاتماً ليس بهذا السوء.

- أتمنى أن تكون مصيباً! إنه بهذا السوء وأكثر ولنَدَعْ هذا الحديث، فلن يغيرّ شيئاً. هناك أشياء أهم. أختك وهيبة وأولادها أمانة في عنقك. لديّ قطعة أرض في (السيدية)، اشتريتها مؤخراً، سأمنحها إياها بطريقة قانونية، وأرجو ألاّ يكون لديك اعتراض، وأن تعاهدني ألاّ يعرف أحد شيئاً عن هذا.

- عهد الله ورسوله! ولا اعتراض على ما تريد.

- وهناك شيء آخر حدث منذ أكثر من سنة، أود أن تعرفه، وأن تدرك ما دفعني إليه. لقد تزوجتُ امرأة، أحسستُ أنها ستملأ فراغاً كبيراً في حياتي، ولقد ملأته فعلاً. وصار لي منها ولد.

شحب لون سلمان، وقال لوالده، وهو منكس الرأس:

أفي هذا العمر يا أبي؟!

- ما به هذا العمر؟ أنت شاب، ولا تدرك الآن ما الذي يعاني منه رجل، يشعر بالحاجة إلى طيبات الحياة الحلال. أمثال حاتم، الذين لا قلوب لهم لن يفهموا ما أقول. ولقد فكرتُ في كل ما يترتب على زواجي، ولن تشاركم في الميراث.

- الأمر أكبر من الميراث، إنه الحب والحنان. أما الميراث فإنه جهدك وكفاحك، وليس لأحد الحق في أن يعترض.

- هل ترى أن حبي وحناني اختلفا؟

- ليس لدي أدنى شك أو اعتراض، ولكنها أشياء تُذكر، المهم أن لنا أخاً آخر الآن، ما اسمه؟

- أحمد.

- من هي أمه؟

- سأحكي لك الحكاية.

* * *

في اليوم التالي اصطحب الحاج خلف ولديه سلمان ووهيبة إلى دائرة الكاتب العدل و(الطابو)، وبدأ في إجراء معاملة تحويل ملكية قطعة الأرض لابنته.

* * *

- بماذا شعرت حين حدثك أبوك بكل هذا؟

- التمستُ له العذر، وازددت إعجاباً به. كانت أمي رحمها الله مريضة متعبة، لا تستطيع أن تلبي كثيراً من حاجات الرجل إلى زوجته. ولم أره يوماً يتضجر، لقد أحسن المداراة وصبر، ولكنّ هذا لا يعني أنه لم يكن يعاني. ولم يفْتُرْ حنانه، وأكبر دليل تفكيره في أم جلال وأولادها.

- هل أعطاها قطعة الأرض فعلاً؟

- أجرينا معاملة بيع أصولية، وصرت وكيلاً لها فأتممت المعاملة من دون حضورها.

- ألم يعرف أحد من أهلك بالأمر؟

- الوالدة فقط، وقد فرحتْ جداً، ولعل هذا أحد الأسباب التي عجّلتْ في أن تسامح أبي.

- إذن لقد علمتْ بأمر زواجه.

- لاحقاً.

- وحاتم؟

- لم يعرف بأمر قطعة الأرض إلى الآن. أما الزواج فقد صار أهم ذريعة، اعتمدها بعد وفاة أبي للمطالبة بحصته من الميراث. أنت

تعرف أساليبه.

- أبشعُ أساليبه يتضاءل أمام خسة أساليب ضياء لقد نجح في تشتيت عائلتنا. إنه معول هدم.

- كلاهما معولا هدم.

- اعذرني لكثرة أسئلتي...

قاطعني سلمان ضاحكاً:

لقد (كفّرْتني) بكثرة أسئلتك!

- أغلب أسئلتي، تدفعني إليها ذكريات مما كان يجري في بيتنا.أنت أخي، ولن استحي منك حين أقول إن خيرية الفايز وضياء جعلا بيتنا جحيماً، ثم خراباً.

- من الأشياء التي أسجلها لأبي باعتزاز رقة مشاعره، ففي اليوم التالي، وبعد المشكلة التي حدثت في البيت استرضى والدتي وطيّب خاطرها، ثم تغدينا جميعاً. ولقد أظهر من الحنان لأبناء أختي وهيبة ما جعل أمي تبكي تأثراً، ولكنّ أبهى صور حنانه تجلّت يوم أكملنا تحويل قطعة الأرض لأم جلال. لم أره يوماً في مثل تلك السعادة.

* * *

أخذ الأصدقاء يتهيؤون للسفر. طلب الحاج صالح منهم أن يخبروا عوائلهم أنهم مدعوون إلى حفل زواج ابن أخت خليل قنديل، فأثار سخرية إبراهيم الكواز وعطا الله مرهون.

- ما أسعدنا بهذا الصديق الهمام، الذي لا يجرؤ على قول الحقيقة لأهله! ويتبجح بعض الناس بالرجولة!

- لا أدري كيف تعجب النساء بمثل هؤلاء الأدعياء؟!

فرد مبتسماً:

مساكين! إنني أرثي لحالكم، متى تفهمون الحياة؟ ألن تتأثر النساء حين يفكرن في أننا نرغب في التسلية ونبخل بها عليهن؟ تعلّموا يا جَهَلَة!

ركن الحاج خلف سيارته قرب علوة خليل قنديل، وتقاطر الأصدقاء، وكلٌّ منهم يحمل حقيبة سفر.

أخذ خليل يوصي حسين بما يجب عليه القيام به من واجبات قائلاً وهو يبتسم:

لم تكن سابقاً محتاجاً إلى أن أوصيك، ولكنْ بعد أن مَنَّ الله عليك بالجمعية وبسكرتيرتك الفاضلة نسيتَ كل شيء.

سأل الحاج خلف (حسين حافي):

ما أخبار المشروع الذي اقترحناه عليك؟ هل سألت عن البنت؟

فقال خليل:

إنه يشترط أن تبادر هي إلى طلب يده من ولي أمره.

- من هو ولي أمره؟
- أم نجم.. سكرتيرة الجمعية.
- (والنِّعِمْ).

فتح الحاج صالح باب السيارة الأمامي، ودعا إبراهيم الكواز للصعود مداعباً:

تفضل أبا صباح.. أنت أكبرنا سناً!

- لا.. الحاج عطا الله أكبر مني، لذا فهو أحق مني بهذا المكان.

فقال الحاج عطا الله:

أخلاقكم رفيعة، وتعرفون (الأصول) جيداً.. (مناعيل الوالدين)!

جلس خليل قنديل في المقعد الخلفي للسيارة، بين الحاج صالح والحاج إبراهيم الكواز، وقال ضاحكاً:

ليغفر لي ربي! فقد خالفت وصية مهمة من وصايا أبي، إذ أوصاني ألاّ أجالس مَنْ هم أكبر مني سناً، لأن بعض أحاديثهم مما لا يجوز أن يسمعه صغار السن الأبرياء أمثالي.

فقال الحاج صالح:

المقصود هم أصدقاء أبيك، أما نحن فمشهود لنا بالعفة والأخلاق الحميدة، والله يشهد على هذا!

وقال الحاج إبراهيم:

ونعيمة الدلالة من الشاهدين أيضاً.

حين صاروا قرب المحطة العالمية قال الحاج صالح:

سأنزل هنا. اذهبوا بالسلامة، وسألتحق بكم غداً صباحاً!

التفت الحاج عطا الله، وقال له بحدّة:

ما هذا الكلام (الزايد)! إلى أين تريد الذهاب؟

وقال إبراهيم الكواز:

هل هذه أصول؟ أيّ شيء هو أهم من صحبتنا؟ لماذا لا تستحي؟

فقال مبتسماً:

أهكذا تعاملون صديقكم المريض؟ كونوا مثل الحاج خلف الحنون الرقيق، أو مثل خليل الوديع...

وأكمل خليل: الخجول المؤدب

- أريد الذهاب إلى (سلمان باك) لأقابل شخصاً، يجيد علاج (عِرْك النسا). إني أعاني من آلام شديدة، وأحتاج إلى عناية واهتمام في المنطقة (تحت الحزام).

- لا يبدو عليك أي أثر للمرض!

- تعودتُ على الصبر. أليس الصبر من أخلاق المؤمنين الصالحين؟

فقال خليل:

بلى والله! نفعنا الله بعلمك وصحبتك، وحشرنا وإياك مع نعيمة وعديلة وأم نجم!

سأله الحاج صالح، وهو يهمّ بالنزول:

ما هي أخبار عديلة؟

- بخير، وإذا لم ينفعك علاج (سلمان باك) فإنها كفيلة

بعلاجك. إنها خبيرة بعلاج أسقام الروح والجسد.

سأله الحاج إبراهيم:

ألا ترغب في أن يرافقك واحد منا؟

- كلا، لأني أستحي أن أكشف عن ساقيّ أمامكم.

سأله الحاج عطا الله:

وماذا عن الحاج خلف؟ ألم (تتكشف) أمامه؟

- لم يفتني التفكير في هذه المسألة. إنه لا يشكّل أي خطر ما دام بعيداً عن فاضل الحلاق.

* * *

فتحتْ بهيجة باب الدار، ووقفتْ أمامه، تتأمله بإعجاب ودلال، وهي تبتسم، وقالت معاتبة:

ثلاثة أيام ولم تتصل، أيجوز هذا؟

دفعها قليلاً إلى الخلف وأغلق الباب، وطوّق خصرها بيديه قائلاً:

افرضي أن غيري هو الطارق، هل ستفتحين له الباب، وأنت هكذا.. نصف عريانة؟

- كنت انتظرك.. إني أعرف طرقاتك، فأنت تطرق قلبي.

ضمها إلى صدره، فقالت محذرة:

أمي في الهول!

- وأنت في قلبي.

سلّم على أم بهيجة وقبّل رأسها، وراح يحدثها بمرح، وهي

تبتسم.

سألته بهيجة:

أأعِدّ لك الحمام؟

- أعدّيه رجاءً! فلقد نصحني الطبيب بالاستحمام، قبل استخدام المرهم الذي (وصفه) لي.

... أعدّيه، ودعيني أزح عن جسدي غبار المسيرة الشاقة بصحبة خيرية الفايز.

دخلا الغرفة، فاتجه إلى السرير، وأغلقت بهيجة الباب، ونزعتْ ما كان عليها، وأخرجتْ من دولاب ملابسها رداء نوم سماوي اللون، ارتدته وراحت تسرّح شعرها أمام المرآة، فانطلق يغني بصوت خفيض:

(دشداشة صبغ النيل كَومي كَومي بطركَها.. هلو والكَذله ست طيّات ومَنْدَل مَنْدَل فركَها.. هلو)

جلستْ بالقرب منه، وقالت:

اضطجعْ على بطنك وأعطني المرهم، لأدهن ظهرك يا شايب!

- أنتِ هو المرهم! قال الطبيب إن أصابع الحبيب هي أفضل علاج لآلام المفاصل.

أمسكتْ بأصابعه، وراحت تمعن النظر فيها بإعجاب وتقبّلها، ثم قالت:

منذ يومين ومفاصلي كلها تؤلمني.. عالجني أعالجك.

وعالجَ كلٌّ منهما صاحبه علاج خبير، وغادرا السرير عصراً، وهما بأتم عافية.

* * *

وصل الحاج صالح إلى مزرعة خليل قنديل قبل ظهر اليوم التالي. كان المضيف مكتظاً بأقارب خليل، من أهل القرية الذين تجمّعوا احتفاءً بضيوف (الشيخ) الملا خليل (أبو العيش) وإخوة خليل والأقارب (المعازيب) قائمون بواجبات الضيافة على أتمّ وجه، وهم لا يكفّون عن الترحيب، والضيوف يتصدرون المجلس، وخليل في أعلى درجات الانشراح.

راح الأصدقاء يرمقون الحاج صالح، خلال الأحاديث الشيقة الدائرة بنظرات مستطلعة مستفهمة، وهو يتهرب منها مبتسماً.

قال خليل موجهاً كلامه إلى الحاج صالح:

لولا أنك بدأت العلاج عند ذاك (الشيخ) في (سلمان باك)، لنصحتك بالعلاج على يدي ابن عمي الملاّ سرحان، إنه خبير بعلاج (عرك النسا).

- جزاه الله وجزاك خيراً! أشعر الآن بتحسن كبير، ولا سيما بعد علاج الأمس.

... إن علاج (النسا) أفضل من علاج كل (الملالي).

أدى الحضور صلاة الظهر جماعة، وقُدّمت بعدها وجبة الغداء. (سُفْره) عامرة، اكتظت بأطايب الطعام. جلس خليل قرب الحاج صالح، وسأله بصوت خفيض:

ما لك لا تأكل؟!

- لقد شبعتُ من ((لحم طيرٍ مما يشتهون))

- ذاك لحمٌ لا يُشْبَع منه.

* * *

تجول الضيوف في بساتين القرية عصراً، وبصحبتهم عدد من الشباب، من أقارب خليل قنديل، وهم يحملون بنادق الصيد، وقضوا أوقاتاً طيبة.

اكتظ المضيف ثانية عند المساء، ودارت فناجين القهوة العربية، وراح المسنون يروون حكايات طريفة، تتخللها الأشعار والقصائد البدوية.

قال الملاّ سرحان:

ابتهاجاً بزيارة ضيوفنا الأعزاء سنقيم مساء الغد (ذِكْراً)، إنْ كانوا لا يمانعون، فرحب الضيوف بالفكرة شاكرين.

حين انفضّ المجلس، فُرشَتّ (الدواشك) لينام الضيوف. تمدد الحاج صالح على فراشه، وأشعل سيجارة، وراح ينظر إلى سقف المضيف، مستعيداً أحداث يومه الماضي، وعلى شفتيه ابتسامة نديّة، ولم يشعر إلاّ والأصدقاء يتحلّقون حوله، وكل منهم قد تدثّر ببطانية اتقاءً لبرودة الجو، مطالبين إياه بسرد أحداث اليوم الماضي.

جلس في فراشه، فأسرع الحاج إبراهيم الكواز ليضع بطانية على ظهره، بينما وضع الحاج عطا الله مرهون (النفاضة وعلبة السجائر) قربه، وأسرع خليل ليحضر (دلة) القهوة والفناجين.

* * *

مساء اليوم التالي بدأتْ فعاليات (الذّكر) المثيرة، فأظهر الدراويش فنوناً ومهارات، اهتزّ لها الضيوف والحضور.

تداعت صور وذكريات كثيرة في بال خليل قنديل، أقربها زمناً

(الذّكر) الذي أحياه (الملاّ خطّار الريس) في داره، قبل زواجه الثاني، والرقصة العابثة التي اشترك هندي (ابن أبو عوده) وخليل الريس في أدائها على وقع الدفوف في زاوية من حديقة الدار. وأبعدها زمناً سهرته الخالدة التي لا تُنسى، عند (ماطور) الماء بصحبة (فتنة)، في ليلة (الذّكر) الذي أحياه والده شكراً لله لإنعامه على القرية بوفرة المحاصيل.

استسلمت روحه لتيار الذكريات الجارف. اتكأ على وسادة فوق فراشه، وقد ألحّ عليه طيف فتنة، فتذكّرَ (وثاباً) ابنه، وتساءل في سره إن كان قد عرف حلاوة مثل ذلك اللقاء.

* * *

أحسّ حاتم بفداحة خسارته حين طرده أبوه، فجهد في استرضائه، والتجأ إلى الحاج صالح وخليل قنديل، مستعيناً بهما على تطييب خاطر والده.

رضي الحاج خلف على مضض، ولكنّ الشرخ الذي حدث لم يلتئم أبداً.

* * *

دخل خليل قنديل مطحنة الحاج خلف، يتبعه حسين حافي، فاستقبلهما الحاج ببشاشة.

قال خليل مبتسماً:

رفع أبو علي طلباً إلى (مسؤوله)، أبدى فيه رغبته في الزواج.

وبعد تدقيق المعلومات والاستفسار عن الفتاة المرشحة تمت (الموافقة الأمنية)، وهو الآن جاهز لممارسة دوره النضالي. وقد تعهد بأداء الواجب بتفانٍ وإخلاص، وبأنه سيفاجيء (كافي) مفاجأة لم تخطر لها ببال. (الله يساعدها!) وإن الله مع الصابرين.

قال الحاج خلف مداعباً:

لقد أثرتَ مخاوفي، إذا كان أبو علي مصدر خطر فلا داعي لكل هذا، ننسى الموضوع (والسلام)!

- أيّ خطر (الله يرضى عنك!) إنه خطر على الأعداء.. إسرائيل والقوى الإمبريالية.. أما الجماهير المناضلة فإنه يسخّر سلاحه وكل طاقاته للدفاع عنها.

* * *

أصرّ خليل على إقامة حفل بمناسبة زواج حسين حافي، وتحمّل القسط الأكبر من تكاليفه، وفاءً منه لحسين، كما أسهم الموسرون من أبناء المحلة فيه، وفي طليعتهم أبناء (أبو عودة) والحاج خلف.

قال محمد صالح (ابن أبو عودة):

أتذكّر وعد والدي رحمه الله لحسين، عقب (معركة المعبر) بأنه سيلعب (الساس) يوم زواجه، لذا سأتولى أنا اللعب، وفاءً بوعد والدي.

فقال خليل:

أنا متأكد من أنك ستغلب الجميع في لعبة (الساس) إلا

(حسين) ومن حسن حظك أنه لن يستخدم سيفه اليوم إلا في الدفاع عن الوطن.

* * *

سألت سلمان:

هل تغير حاتم بعد اعتذاره من الوالد؟

– الغريب أن أطماعه زادت، ولكنه أحسن المداراة، لذا فقد أسفر عن وجه بشع، بعد وفاة والدي، رحمه الله!

* * *

تصدّر حاتم وسلمان مجلس العزاء، وإلى جوارهما ثلاثة من أبناء عمومتهما. وانشغل الأقارب الآخرون باستقبال المعزين.

تكلّف حاتم الوقار، وراح يتحدث بتصنّع ويلقي بالتوجيهات يمنة ويسرة. لم يُطلْ سلمان الجلوس قربه فانتقل إلى مكان آخر، بينما فوزي ومحمود وجلال منشغلون بتقديم القهوة والشاي للمعزين.

نال جلال نصيباً كبيراً من المواساة من أصدقاء المرحوم الذين كانوا يعرفون تعلقه بجده.

* * *

كيف سار العمل في المطحنة بعد وفاة الوالد؟

– سيراً متعثراً. كنت منشغلاً بالدوام، كذلك انشغل فوزي

ومحمود بالدراسة.

- وحاتم؟

لم يُجب سلمان عن سؤالي مباشرة.. تريث قليلاً، ثم قال: هنا الطامة الكبرى.. لقد أعماه الحقد والطمع.

- كيف؟

وتأخر في الإجابة هذه المرة أيضاً، فسألته:

ما بك؟

- مضت مدة طويلة على كل ذلك الذي جرى، ولكني إلى الآن حين أتذكره أحار في وصفه أو تفسيره. إني أعجب للحال الذي ينحدر إليه الإنسان حين يسيطر عليه الشر! ما أبشع الإنسان حينها! وما أصغره!

* * *

أخذ حاتم يتردد على المطحنة يومياً، ويحاسب العمال عن كل صغيرة وكبيرة. راح يجلس خلف مكتب أبيه، محاولاً تقمص شخصيته، بعد أن أخذ يرتدي عباءته، التي ألح على والدته أن تمنحها إياه، مدعياً أنه يجد فيها (رائحة أبيه).

صبّ اهتمامه الأكبر على ضبط إيرادات المطحنة، وكان شعاره الشك في كل الموجودين من العمال، وعدم فسح المجال للآخرين لإبداء الرأي والمشورة. رفض أي تعامل بالآجل، مثلما امتنع عن أي خصْم يطالب به بعض الزبائن، مدّعين أن المرحوم الحاج خلف كان يمنحهم إياه.

ولم يستطع حاتم السيطرة على مقته جلالاً وحقده عليه، فأخذ يستثمر أية فرصة تُتاح لإيذائه. ناداه يوماً بحدّة قائلاً:

جندح، هاتِ الناركيلة!

- أعطاها خالي سلمان للحاج إبراهيم.

- يتصرف وكأن لا أحد مسؤول! خذ.. اصبغ الحذاء.

فقال جلال بمكر:

لا يوجد لدينا صبغ.

فصاح حاتم:

امشِ (أثول).

تقلص عدد زبائن المطحنة تدريجياً، ولم تعد إيراداتها تغطي المصروفات وأجور العمال، فأعلن حاتم عن ضرورة بيع الماكينة والمعدات، ولم يعترض أحد، لأن هذا الإجراء هو الأنسب، في مثل تلك الحالة التي آلت إليها ظروف العمل.

* * *

- هل تمت إجراءات البيع بيسر؟ ألم تحدث تعقيدات؟

- أتتصور أن حاتماً يدع الأمور تجري بلا تعقيدات في قضية مالية؟

* * *

بدأ حاتم يشكو أمام والدته من ضائقة مالية، يعاني منها، ولما لم يجد منها تعاطفاً مريحاً جهر بحاجته إلى ثمن المعدات عند

بيعها، فأوكلت الأمر إلى أخيه سلمان.

أخذ حاتم بالتودّد إلى سلمان واستمالته، وراح يكشف عن نواياه تدريجياً، فواجهه سلمان برفض واضح، خيّب آماله، ثم عاد فأحيا فيه الأمل.

* * *

- كيف؟
- بيّنتُ له أنّ بإمكانه الحصول على ثمن الماكينة والمعدات مقابل التنازل عن حصته في أرض المطحنة.
- أيهما أكثر قيمة؟
- الأرض بالطبع.

* * *

- هل يجوز أن تتعامل معي هكذا، وأنا أخوك الأكبر؟
- الأمر لا يعنيني وحدي. إنها حقوق إخوتنا.
- وهل أنت أكثر حرصاً مني عليهم؟
- إن لم أكن أحرص منك، فأنا بلا شك لا أطمع فيهم.
- وتتهمني بالطمع يا سلمان، ألا تستحي؟!
- وهل تستحي أنت؟ لا تتمادَ، وأبقِ على الاحترام بيننا.
- موافق على هذا الشرط.
- أريد تعهداً مصادقاً عليه لدى الكاتب العدل بالتنازل عن حصتك في أرض المطحنة.

- لنؤجل التعهد قليلاً، لأني مشغول حالياً.
- لن تأخذ فلساً واحداً، إلا بعد توقيع التعهد.
- لولا حاجتي لما رضيتُ بهذه الخسارة.
- ليست خسارة، قد تنخفض قيمة الأرض.

* * *

- وتتهمني بقسوة القلب! ألم تكن قاسياً معه؟
- لو لم أعامله مثل تلك المعاملة، لما وقفتْ أطماعه عند حد.
- هل التقيت بالسيدة نزيمة عن قرب؟
- كثيراً، وما أزال التقي بها إلى الآن. إنها زوجة أبي، من جانبي أحسّ بالمسؤولية عنها.
- ومن جانبها.
- كان أبي رحمه الله مصيباً في كل ما قاله عنها! إنها سيدة نبيلة. لقد جهدتْ في تقريب أخويّ أحمد وصلاح منا، ومن ثم جعلتْ أبناءها الآخرين يأنسون بنا. والحق يقال لقد أحسنتْ تربيتهم. إنها سيدة رفيعة المستوى، ولقد أصرت على أن أكون حاضراً عند خطوبة ابنتيها.
- لك أخوان منها؟
- نعم.. أحمد وصلاح. استثمر أبي أوقاته استثماراً ممتازاً.
- كم يبلغان من العمر؟
- أحمد طالب في المرحلة الإعدادية وصلاح في المتوسطة.
- كيف وجدتها حين التقيتها أول مرة؟

- كنت أراها من حين إلى آخر حين كانت تسكن في المحلة. ولقد اصطحبني أبي مرة لزيارتها، وكانت ما تزال تسكن عند خالتها، فاستقبلتني بمودة بالغة. إنها سيدة رصينة، هادئة، رقيقة، من طراز غير مألوف في محلتنا. كان أبي يرمقها بلهفة، وهي تتحدث. وحين رأيته يتململ في جلسته شعرتُ أنه ندم لاصطحابي، فتذرعتُ بأمر أريد أنجازه، فسألته:

أيمكن أن أذهب إلى الأعظمية، لأشتري بعض اللوازم؟ قد أتأخر ساعة.

قال:

تأخرْ ساعتين.. ثلاثاً.. كما تشاء.

فذهبت إلى (شارع عشرين) في الأعظمية، وتجولتُ بين (الجنابز)، ثم جلست في أحد المقاهي، بين مربّي الطيور. وانقضتْ الساعتان دون أن أدري، وحين عدتُ سألني:

هل أنجزتَ أعمالك؟

قلت: نعم.

... لم أنجز أي عمل، ولكن يبدو أنك انجزتَ أهم أعمالك!

ويومذاك رأيتُ خالتها، فسألتني عن عمي.. عن أبيك.

- أحقاً.. سألت عن أبي؟

- كانت معجبة به جداً.

- ومَنْ لا تعجبُ به؟ والسيدة بهيجة هل رأيتها؟

- ماذا أقول لك عنها؟! إنها والمرحوم والدك (من طينة واحدة)!

مليئة بالمرح والظرف. حدثني أبي كثيراً عن حب أبيك إياها.

- لماذا لم تخبرني بذلك؟

- لقد أخذ عليّ عهداً وثيقاً ألاّ أخبر أحداً بالأمر. كلما رأيت أباك رحمه الله، وهو يملأ سهراتهم مرحاً تخيلته وهو يتودد إليها، فتتمنع قليلاً، ثم تستجيب بدلال، مثل إناث الطيور في موسم التكاثر. ألم ترها؟

- للأسف! رأيتها، وهي تغادر مجلس النساء، بعد وفاة أبي رحمه الله! جاءت بصحبة السيدة نزيمة، ولقد أثارتا تساؤلات كثيرة.

- كيف عرفت أنها هي؟

- مجرد تخمين.

- ولم تلتق بها بعد وفاته؟

- أبداً.

- والميراث والأمور الأخرى؟

- لم تتصل بنا أبداً، علماً أن ضياء البطل كان قد رسم الخطط منذ زمن بعيد للاستحواذ على كل شيء.

- كذلك السيدة نزيمة لم تطالب بحصتها، واعتذرت عن تسلم حصتي أحمد وصلاح، ولكني أصررتُ على أن يأخذا حصتهما أسوة بنا، وتنازلت لهما عن نصف حصتي، وتنازلت عن النصف الآخر لفوزي ومحمود.

- وحصتها؟

- كان بينها وبين أبي اتفاق موثّق قانونياً، بتَسَلُّم كل منهما حصته من الآخر في حياته. ووالدك رحمه الله أحد الشاهِدَيْن عليه!
- والشاهد الآخر هو خليل قنديل حتماً؟
- بالضبط.
- هل يمكن أن تقوم بين الأصدقاء في أيامنا هذه علاقة بهذا المستوى؟
- أشك في هذا.
- وماذا كان رد فعل حاتم؟
- ثار ثورة شديدة، وأراد أن يلتقي بها ليهددها، كي تتنازل عن حصتي أحمد وصلاح، وحاول أن يستثير إخوتي، ولكني ردعته بقوة، فضلاً عن أنه لم يجد من يناصره، فأذعن مكرهاً.
- أيمكن أن ألتقي بالسيدة بهيجة؟
- ما لك ولها؟
- لا شيء... ولكني آمل أن أرى فيها بقيةً من روح أبي!
- ربما سترى فيها روح أبيك كلها.

* * *

بدت بناية المطحنة، بعد بيع المعدات والماكينة واسعة موحشة، لا أثر فيها للحياة، إلا هديل عدد من الطيور التي أسس جلال أوكارها، وحركات طائر السنونو الرشيق الذي كان يعود كلّ عام، ليبني عشاً له في واحدة من زوايا السقف.

صار جلال يافعاً، رشيق القوام، أقلّ صخباً مما كان عليه في صباه، وكأن أعباء الحياة قيدّت حركاته. ترتسم على وجهه القمحي ملامح فتوة وعنفوان، وحين يبتسم يشرق وجهه ببريق ذكاءٍ ومرحٍ، تؤكدهما طلاقة لسانه وعذوبة كلماته.

له عند الأحياء من أصدقاء جده، وعند رجال المحلة منزلة (وقيمة)، نالهما لمثابرته واجتهاده في الأعمال التي زاولها، بعد تركه مقاعد الدراسة في المرحلة المتوسطة.

لم يتوانَ في العمل، فبعد بيع معدات المطحنة خصّص جانباً من البناية الفارغة لبيع الخضروات والفواكه، مستعيناً بصديق طفولته أحمد فرحان، الذي ترك مقاعد الدراسة هو الآخر. وراح رشيد فياض، خال أحمد فرحان يجهزهما بالبضاعة، ويعلمهما مباديء المهنة، ثم أخذ أحمد يرافق خاله إلى (العلوة) ليتبضع منها.

واستعان جلال بسلمان (البايسكلجي)، فاشترى دراجتين هوائيتين مستعملتين، وراح يؤجرهما للصِّبْيَةِ، ثم اقتنى دراجتين أخريين، وأشرك صديقه أحمد في هذا العمل أيضاً. ولقد أبدى مهارة في عمله الإضافي هذا، جعلتْ سلمان البايسكَلجي يرجوه من حين لآخر أن يدير العمل في محله، عند اضطراره للغياب عنه.

أثار صفاء العلاقة بين جلال وأحمد إعجاب الجميع. وكان سلمان يطرب لسماع ثناء الناس عليهما ورضاهم عن سلوكهما وطريقة تعاملهما مع الزبائن. ولقد ضحك كثيراً حين أخبره خليل قنديل أن (نجية أم الدجاج) قالت لجلال، وهي تشير إلى حبّة طماطة تالفة:

(يُمّه جلاّوي.. الطماطة مالتك اليوم ممروده!)

فأجابها:

(لا.. خالـه أم عبـاس! الطماطـة مـا بيهـا شـي، هـذا كَلـبي الممرود).

فقالت ضاحكة:

(اسم الله على كَلبك يُمّه! الله يرحم جدك، لسانك حلو مثل لسانه!)

وحين تقلّ حركة الزبائن، ويهدأ صخب العمل ينصرف جلال إلى قفص الطيور، الذي وضعه في جانب من البنايـة، فيفـتح بابـه لتخرج الطيور سارحة.

* * *

- لن أنسى أنه في نهاية الشـهر الأول مـن عملـه أعطـاني اثـني عشر ديناراً قائلاً:

خالي! هذا (الإيجار) وحين يتحسن العمل سأجعله خمسة عشر ديناراً.

- هل تتذكر أستاذ إبراهيم درويش، مدرس اللغة العربية في الإعدادية، رحمه الله؟!

- نعم.. رحمه الله وكلَّ موتانا.. مابه؟!

- ذكر يوماً بيتاً للخنساء في رثاء أخيها، لم أحفظه، ولكني أتذكر معناه، وهو أنهـا تتـذكره كـل يـوم صـباحاً ومسـاءً. هـل

تتذكر البيت؟

- شطراً منه فقط، وهو (يذكّرني طلوعُ الشمس صخراً).

- أنا مثلها، لا أستطيع النسيان. كلّ خُلق سيء يذكّرني بضياء، مثلما يذكّرني اسمه بكل الرذائل الموجودة في الحياة.

- أنت تفتعل المناسبات لتذكره، ولتنفّس عن حقدك عليه.

- لا والله لا أفتعل شيئاً! ولكني أتحدث إليك بدون تحفّظ وبعفوية. أما حقدي عليه فلست أنكره، وسيبقى في زيادة إلى يوم أدفن.

- ما الذي جعله يخطر في بالك الآن؟

- فكرت في أن أسألك عن موقف حاتم من نشاط جلال، لأني أعرف أن نجاحه سيغيضه، مثلما أغاض نجاحي ذلك اللعين.

- لولا أني أعرف أنك صادق في كل ما تقوله عنه للمتك، ومع هذا انسه، والتفت إلى أشياء أخرى، ألا تكفي هموم اليوم لتشغلك عن أحزان أمس؟

- ليتني أستطيع! والله لقد كرهت حتى حقدي عليه، هذا الحقد الذي لم أنسه في أكثر اللحظات خشوعاً وروحانية.. في أثناء الوقوف في عرفات! حين أوشكت الشمس أن تغيب سألت الله، وأنا أبكي أن ينتقم لي منه.

- ألا تريد أن أجيبك عن سؤالك عن حاتم؟ لقد امتصّ ضياء حقدك كله.

- إنه معتاد على امتصاص كل ما عند الآخرين. حقاً لقد

نسيت سؤالي عن حاتم! ماذا كان منه؟

- أخذ يتظاهر باللامبالاة، ثم الاستخفاف بجلال، ولكنْ بحذر، لأن جلالاً شبّ وازداد صلابة، فلم يعد يسكت عند تحرش حاتم به. ولقد كشف عن ظلام نفسه وسوء سريرته عندما سيق جلال لأداء الخدمة العسكرية، فبسبب عاهته سيق إلى الخدمة غير المسلحة، عندها أسفر حاتم عن وجه قبيح، فراح يسميه (المراسل).

- ألم تتدخل؟

- ضد حاتم؟

- ضده، وفي الجيش، ألم (تتوسط) لجلال؟

- أما حاتم فإن الحقد أعمى بصيرته وأصمّه، وأما (التَّوسط) فلقد سعيت في نقل جلال وأحمد من مراكز التدريب إلى مديرية التموين والنقل في القوة الجوية، فأفادا من هذا النقل كثيراً، ولا سيما أحمد الذي تعلّم مهنة ميكانيك السيارات.

- كيف سارت أيامه في الجيش؟

- أنت تعرفه.. إنه شاطر. لقد حظي بحب الآمرين. كان منضبطاً، ولم تُسجَّل عليه غيابات، فتسرح من الجيش بيسر. ولقد صقلته الخدمة العسكرية.

- ماذا يعمل الآن؟

- اشترك هو وصديقه أحمد في محل لبيع المواد الاحتياطية للسيارات.

- هل تزوج؟

- نعم. تزوج أخت صديقه أحمد. تقدم لخطوبة ابنة خالته، ولكن حاتماً تدخل، فعرقل الأمر، ثم خطبها لابنه ولم أكرهه كما كرهته ذلك اليوم، وأكثر ما ساءني منه ابتسامة النصر الشامتة المقيتة.

- كيف هي أحوال جلال الآن؟

- بألف خير! كان أبي رحمه الله يقول: (سيكون له شأن)! وهذا ما تحقق، فلقد اشترى حصص أخواله في أرض المطحنة، وبنى داراً فيها، أراها امتداداً لدار أبي، إذ إننا نجتمع عنده غالباً، باستثناء حاتم طبعاً.

- وماذا عن دار أبيك؟

- ماذا تتوقع وحاتم موجود؟ لقد بعناها.

- مثلما حدث لنا. كم تمنيت أن يبقى لنا جذر في محلتنا!

- إن لكل من ترك المحلة من أهلنا نصيباً في جلال. مارأيك في سهرة عنده؟ إنه يجيد غناء المقام.

- إذا سهرنا مع جلال والمقام فـ(اقرأ على صلاتنا السلام).

* * *



المؤلف في سطور

- الاستاذ الدكتور جبير صالح القرغولي
- مواليد بغداد ١٩٥٢
- دكتوراه في علوم اللغة العربية. تخصص في الأدب والنقد الأدبي الحديث.
- يعمل حالياً استاذا في الجامعة العراقية - بغداد

من مؤلفاته

- شعر الحرب في العراق في العصر الوسيط
- التصوير الفني في القران الكريم، دراسة تحليلية في جهود الباحثين
- حيوية صورة الصراع في لوحة الطرد في الشعر العربي، عينية ابي ذؤيب انموذجا
- صلاة عند ضفاف بويب. قراءات في شعر السياب
- مفكرة رجل أمي (مجموعة قصصية)
- أمنيات معطلة (مجموعة قصصية)
- دنيا الوجد (رواية)
- البربري وخضراء العينين (مجموعة قصصية)

اعمال تحت الطبع

- الصورة الفنية في شعر البادية بين الابداع والتقليد

المشاركات

- شارك في مؤتمرات أدبية عدة
- له جهود وإسهامات في نشاطات سلامة اللغة العربية في القطر.



